

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن للناس مجالس يرتادونها، وبينهم أحاديث يتداولونها ويتجادبون أطرافها، ولكل من المحادثة والمجالسة آداب جميلة، وسنن قويمية، يحسن بالمرء مراعاتها، ويجمل به أن يتخلق بها، ويتجنب ما ينافيها؛ ليكون حديثه ماتعاً، ومجلسه ممرعاً، تسوده الحكمة، وتغشاه السكينة، وتتنزل عليه الرحمة.

وإن المتأمل لأحاديثنا ومجالسنا ليلحظ خللاً كبيراً، وتقصيراً كثيراً؛ ذلك أنها تعمر غالباً بالهذر الضار، واللغو الباطل، الذي لا طائل تحته، ولا فائدة ترجى من ورائه.

فلا يعالج في تلك المجالس قضية، ولا يأمر فيها بصدقة، أو بمعروف، أو إصلاح بين الناس.

بل ربما أضحت مراتع للخنا، ومنتديات للزور، يسفك فيها دم الفضيلة، وترفع في سوحها ألوية الرذيلة؛ فلا غرو إن صارت وبالاً على أهلها، وحسرة على مرتادها؛ حيث فقدوا بركتها، وحرموا خيراتها، فلا يجد المرء فيها أنسه، ولا من يقدر كرامته وإنسانيته، بل ربما وجد الإهانة والإساءة من جلاسه.

فما أحرانا معاشر المسلمين أن تكون أحاديثنا ومجالسنا عامرة بالجد والحكمة، حافلة بما يعود علينا بالفائدة والمتعة، بعيدة عما ينافي الآداب والمروءة.

وإن مما يعين على ذلك أن تلقى الأضواء على ما يدور في مجالسنا وأحاديثنا من أخطاء؛ كي تُتلافى ويُسعى في علاجها.

وفي مايلي من صفحات ذكرٌ لبعض تلك الأخطاء؛ تنبيهاً عليها،
وحفزاً لمن وقع فيها أن يتخلص منها.
فحسى الله أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجه الكريم؛ إنه
ولي ذلك والقادر عليه.
والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

محمد بن إبراهيم الحمد
عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام
محمد بن سعود الإسلامية _ فرع
القصيم
الزلفي 1416/5/3 هـ
ص.ب: 460
www.toislam.net

أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة

1_ الثرثرة:

الثرثرة هي كثرة الكلام بلا فائدة، والثرثار هو كثير الكلام تكلفاً.

فتجد من الناس من هو ثرثار مهذار، يتكلم من كل باب، ويتولج كل مضيق.

فإذا حضر مجلساً ما ملاًه بكثرة الضجيج، وأشغله بفضول الكلام. فالثرثرة مظهر من مظاهر سوء الخلق، وهي دليل على نقص العقل ورقّة الدين.

قال النبي عليه الصلاة والسلام = إن من أحبكم إليّ، وأقربكم مني في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقاً؛ الثرثارون، المتفيهقون، المتشدقون+. (1)

وقال أبو هريرة ÷: = لاخير في فضول الكلام+. (2)
وأوصى ابن عباس رضي الله عنهما رجلاً فقال: = لا تتكلم بما لا يعينك؛ فإن ذلك فضل، ولست آمن عليك من الوزر، ودع الكلام في كثير مما يعينك حتى تجد له موضعاً؛ فربما متكلماً في غير موضعه قد عُتيت+. (3)

وقال عطاء x: = كانوا يكرهون فضول الكلام+. (4)

وقال: = بترك الفضول تكمل العقول+. (5)

وقال: = الصمت صيانة للسان، وستر العي+. (6)

وقال الشافعي x:

لاخير في حشو الكلام إذا اهتديت إلى عيونه

(1) أخرجه أحمد 4/193_194، وابن حبان (482) وابن أبي شيبة 8/515، والبيهقي في شرح السنة (395) كلهم من حديث أبي ثعلبة الخشني، والترمذي (2018) عن جابر وقال: = حديث حسن قريب+ وقال الهيثمي في المجمع 8/21: = رجال أحمد رجال الصحيح+ وحسنه الألباني في الصحيحة (791).

(2) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر 1/61.

(3) العزلة للخطابي، ص 134.

(4) بهجة المجالس. 1/61.

(5) بهجة المجالس. 1/61.

(6) بهجة المجالس. 1/61.

والصمتُ أجملُ بالفتى من منطقي في غير حينه(1)

وقال إسماعيل الكاتب:

خيرُ الكلام قليلٌ على كثيرٍ دليلُ

والعبيّ معنىٌ قصيرٌ يحويه لفظٌ طويلُ(2)

قال الإمام النووي x = اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام المباح وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه؛ لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثيرٌ في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء+. (3)

وقال القاسمي: = إياك وفضول الكلام؛ فإنه يُظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن؛ فكلام الإنسان بيان فضله وترجمان عقله؛ فاقصره على الجميع، واقتصر منه على القليل+. (4)

ولئن كان نزول الصمت، وترك الحديث فيما لا يعني مستحسناً مطلوباً من كل أحدٍ فلهو ممن يأنس من نفسه الجهل، وكثرة الزلل والخطأ أولى وأولى.

قال علي بن عبدالرحمن بن هذيل: = من الواجب على من عري من الأدب، وتخلّى عن المعرفة والفهم، ولم يتحلّ بالعلم أن يلزم الصمت، ويأخذ نفسه به؛ فإن ذلك حظ كبير من الأدب، ونصيب وافر من التوفيق؛ لأنه يأمن من الغلط، ويعتصم من دواعي السقط؛ فالأدب رأس كل حكمة، والصمت جماع الحكم+. (5)

قال الشاعر:

(1) ديوان الشافعي ص136 بتحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي.

(2) بهجة المجالس 61/1.

(3) رياض الصالحين للنووي ص391.

(4) جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب للقاسمي ص6.

(5) عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل ص128.

وفي الصمت سترٌ لعيي وإنما صحيفة لب المرء أن
١٢٠٠ (1)

2_ الاستئثار بالحديث:

فهناك من يثرثر حديثه، ولكنه يعطي غيره فرصة كي يتحدث.
والثرثرة قبيحة كما مر وأقبح منها أن يستأثر المرء بالحديث، فلا
يعطي غيره فرصة لأن ينبس ببنت شفة.
والأثرة بالحديث آفة قبيحة، يغفل عنها كثير من المتحدثين؛ لظنهم
أن سكوت من أمامهم إنما هو إعجاب بكلامهم، وموافقة لهم على
الإطالة.

فيحسن بالتحدث تجنب الاستئثار بالحديث وأن لا يعيب على غيره
ذلك ويبيحه لنفسه. (2)

فمن الأدب بالكلام أن يقتصد المسلم في تحدثه في المجالس، وأن
ينأى بنفسه من صنيع بعض الناس، ممن لا يستحيون من امتلاك
ناصية الحديث في محافل الناس، فيملأون الأفئدة بالضجر من طول
ما يتحدثون. (3)

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي x: =إياك أن تتصدى في
مجالسك مع الناس للترؤس عليهم وأنت لست برئيس، وأن تكون
ثرثاراً متصدراً بكل كلام.

وربما من جهلك وحمقك ملكت المجلس على الجلوس، وصرت
أنت الخطيب والمتكلم دون غيرك.

وإنما الآداب الشرعية والعرفية مطارحة الأحاديث، وكل من
الحاضرين يكون له نصيب من ذلك، اللهم إلا الصغار مع الكبار،
فعليهم لزوم الأدب، وأن لا يتكلموا إلا جواباً لغيرهم. (4)

(1) عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل
ص128.

(2) انظر كيف تحاور د. طارق الحبيب ص15.

(3) انظر خلق المسلم للغزالي ص160.

(4) الرياض الناضرة ضمن المجموعة الكاملة لابن سعدي، الخامسة ص549.

3_ الحديث عن النفس على سبيل المفاخرة:

فبعض الناس لا يفتأ يتحدث عن نفسه، فيذكر محاسن نفسه، ويمتدح أعماله، ويفتخر بما يصدر منه من أفضال وأيادٍ. ويدخل في ذلك تحدّثه عن إعجابه بكلامه، وتصنيفه، وشعره، وسائر ما يخصه. ويدخل في ذلك أيضاً حديثه عن زكاء أولاده، وذكر أخبارهم، والحديث عن زوجته، وحسن تدبيرها، ونحو ذلك. والأصل في مدح الإنسان نفسه المنع؛ لقوله عز وجل [فلاتزكوا أنفسكم] (النجم: 32).

وتزكية النفس داخلة في باب الافتخار غالباً. فإن وجد ما يقتضي الحديث عن النفس وتزكيتها إما للتعريف بنفسه، وإما لتوضيح الأمور المبهمة، وإما لدفع تهمة، وإما لغير ذلك من الأمور المشروعة فإن تلك التزكية جائزة، ومدح النفس والحديث عنها حينئذ لا غبار عليه (1). قال الإمام النووي x: =واعلم أن ذكر محاسن نفسه ضربان: مذموم ومحبوب.

فالمذموم أن يذكر للافتخار، وإظهار الارتفاع، والتميز على الأقران، وشبه ذلك. والمحبوب أن يكون فيه مصلحة دينية، وذلك بأن يكون أمراً بمعروف، أو ناهياً عن منكر، أو ناصحاً بمصلحة، أو معلماً، أو مؤدباً، أو واعظاً، أو مذكراً، أو مصلحاً بين اثنين، أو يدفع عن نفسه شراً، أو نحو ذلك، فيذكر محاسنه ناوياً بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله، واعتماد ما يذكره.

وقد جاء لهذا المعنى ما لا يحصى من النصوص+. (2)
ثم ساق x أمثلة على ذلك. (3)

(1) انظر السلوك الاجتماعي في الإسلام لحسن أيوب ص 428_429.

(2) الأذكار للنووي ص 246_247.

(3) انظر الأذكار ص 247.

قال ابن المقفع: = وإن أنست من نفسك فضلاً فتحرّج من أن تذكره، أو تبديه، واعلم أن ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك في قلوب الناس من العيب أكثر مما يقرر لك من الفضل.
واعلم أنك إن صبرت، ولم تعجل ظهر ذلك منك بالوجه الجميل المعروف عند الناس.

ولا يخفينّ عليك أن حرص الرجل على إظهار ما عنده، وقلة وقاره في ذلك باب من أبواب البخل واللؤم، وأن خير الأعوان على ذلك السخاء والتكرم.

وإن أردت أن تلبس ثوب الوقار والجمال، وتتحلّى بحلية المودة عند العامة، وتسلك الجدد(1) الذي لاخبار(2) فيه ولاعتار فكن عالماً كجاهل، وناطقاً كعبي.

فأما العلم فيزيّنك ويرشدك، وأما قلة ادعائه فتتفي عنك الحسد، وأما المنطق إذا احتجت إليه فيبلغك حاجتك، وأما الصمت فيكسبك المحبة والوقار.(3)

4_ الغفلة عن مغبة الكلام:

فهناك من يطلق لسانه بالكلام دونما نظر أو مبالاة في آثاره، أو أبعاده.

فتجده يطلق القول على عواهنه غير عابىء بما يجره عليه من بلاء أو شقاء؛ فلربما كان سبباً في مقتله، ولربما كان سبباً في إذكاء عداوة، أو إشعال حرب، أو نحو ذلك.

قال أكتّم بن صيفي: = مقتل الرجل بين فكيه +(4) يعني لسانه.
وقال المهلب لبنيه: = اتقوا زلة اللسان؛ فإني وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من عثرته، ويزل لسانه فيكون فيه هلاكه+(5)

(1) الجدد: الأرض المستوية.

(2) لاخبار: الخبر ما استرخى من الأرض.

(3) الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع ص135 شرح ودراسة د.مفيد قميحة.

(4) المحاسن والمساوي لإبراهيم البيهقي ص427.

(5) المحاسن والمساوي لإبراهيم البيهقي ص427.

قال الشاعر:

يصاب الفتى من عثرةٍ بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة

وعثرته من فيه ترمي برأسه وعثرته في الرجل تبرى على

والعرب تقول في أمثالها: =إياك وأن يضرب لسانك عنقك+. (1)

أي إياك أن تلفظ بما فيه هلاكك. (2)

وقال علي ÷: =اللسان معيار أطاشة الجهل، وأرجه العقل+. (3)

وقال بعض البلغاء: =الزم الصمت؛ فإنه يُكسبك صفوة المودة،

ويؤمّنك سوء المغبّة، ويُلِسُكَ ثوب الوقار، ويكفيك مؤونة الاعتذار+. (4)

وقال بعضهم: =اعقل لسانك إلا عن حق توضحه، أو باطل

تدحضه، أو نعمة تذكرها+. (5)

وقال طرفه بن العبد:

وإن لسان المرء ما لم تكن له حصة (6) على عوراته لدليل (7)

يقول إذا لم يكن مع اللسان عقل يحجزه عن بسطه في مالا

يحب دل اللسان على عيبه بما يلفظ به من عور الكلام. (8)

وقال الآخر:

رأيت اللسان على أهله إذا ساسه الجهل ليثاً مغيراً (1)

(1) المحاسن والمساوي ص428.

(2) الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص41 ومجمع الأمثال للميداني 808/1.

(3) أدب الدنيا والدين للماوردي ص275.

(4) أدب الدنيا والدين للماوردي ص275.

(5) أدب الدنيا والدين ص275.

(6) حصة: عقل.

(7) ديوان طرفه بن العبد ص81، وانظر بهجة المجالس لابن عبد البر 83/1.

(8) انظر لسان العرب 183/14.

وقال عمرو بن العاص ÷: =زَلَّةُ الرَّجْلِ عَظْمٌ يُجْبَرُ، وَزَلَّةُ اللِّسَانِ لَاتَبْقِي وَلَا تَذْرُ+. (2)

بل إن الإنسان قد يتكلم بكلمة لايلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم. عن أبي هريرة ÷ عن النبي " قال: =إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لايلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لايلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم+. (3)

ولهذا يجب على العاقل أن يخزن لسانه، وأن يزن كلامه؛ حتى لايقع فيما لاتحمد عقباه، فيندم ولات ساعة مندم.

قال ابن المقفع: =اعلم أن لسانك أداة مُصَلِّتة، يتغالب عليه عقلك، وغضبك، وهواك؛ فكلُّ غالبٍ عليه مُسْتَمْتِعٌ به، وصارفه في محبته. فإذا غلب عليه عقلك فهو لك، وإن غلب عليه شيءٌ من أشباه ماسميت لك فهو لعدوك.

فإذا استطعت أن تحتفظ به، وتصونه فلا يكون إلا لك، ولا يستولي عليه، أو يشاركك فيه عدوك فافعل+. (4)

وقال الماوردي x: =واعلم أن للكلام شروطاً لايسلم المتكلم من الزلل إلا بها، ولايعرى من النقص إلا بعد أن يستوفيها. وهي أربعة شروط، فالشرط الأول: أن يكون الكلام لداعٍ يدع إليه، إما في اجتلاب نفع، أو دفع ضرر. والشرط الثاني: أن يأتي به في موضعه، ويتوخى به إصابة فرصته.

والشرط الثالث: أن يقتصر فيه على قدر الحاجة. والشرط الرابع: أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به+. (5)

ثم شرع x بتفصيل ذلك بكلام جميل.

(1) بهجة المجالس 83/1.

(2) بهجة المجالس 87/1.

(3) أخرجه البخاري 185/7 عن أبي هريرة.

(4) الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع ص 139.

(5) أدب الدنيا والدين ص 275.

وقال الزمخشري: = خير الألسن المخزون، وخير الكلام الموزون؛ فحدّث إن حدّثت بأفضل من الصمت، وزين حديثك بالوقار وحسن السمّت.

إن الطيش في الكلام يترجم عن خفة الأحلام، ومادخل الرفق بشيء إلا زانه، ومازان المتكلم إلا الرزانة+. (1)

5_ قلة المراعاة لمشاعر الآخرين:

فمن الناس من هو غليظ الطبع، كثيف النفس، صفيق الوجه، لا يحجزه عن المبادل يقين، ولا تلزمه المكارم مروءة، لا يراعي مشاعر الآخرين، ولا يأنف من مواجعتهم بما يكرهون.

فإذا ما حضر مجلساً، وابتدر الكلام، وضعت يدك على قلبك؛ خشيت أن يزل أو يفرط على أحد من الحاضرين.

فإذا ما وجد مجالاً يشبع فيه طبيعته النزقة الجهول_ هام على وجهه، لا ينتهي له صياح، ولا تنحبس له شيرة.

فتارة يذكر الحاضرين بعيوبهم، وتارة يؤذيه بلحن منطقه، وتارة يذكرهم بأمور يسوؤهم تذكرها.

=أكب رجل من بني مرة على مالك بن أسماء يحدثه في يوم صيف، ويُعَمِّه، ويثقل عليه، ثم قال: أتدري من قتلنا منكم في الجاهلية؟

قال: لا، ولكني أعرف من قتلتم منا في الإسلام.

و قال: من هم؟

قال: أنا قتلتني اليوم بطول حديثك، وكثرة فضولك+. (2)

وقال ابن القيم x: = ومنهم من مخالطته حمى الروح، وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها.

(1) أقوال مأثورة وكلمات جميلة، د. محمد بن لطف الصباغ، ص 148 عن أطواق الذهب للزمخشري، ص 89.

(2) عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة لأبي الحسين علي ابن عبد الرحمن بن هذيل ص 192.

بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه به؛ فهو يحدث من فيه كلما تحدث، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرّحا العظيمة، التي لا يطاق حمله ولاجرها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي^x أنه قال: ما جلس إليّ ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يوماً عند شيخنا⁽¹⁾ قدس الله روحه رجلاً من هذا الضرب، والشيخ يحمله وقد ضعفت القوى عن حمله، فالتفت إليّ وقال: مجالسة الثقيل حمى الربيع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى، فصارت لها عادة، أو كما قال⁽²⁾.

ولهذا فالرجل النبيل، ذو المروعة والأدب هو من يراعي مشاعر الآخرين، فلا يؤذيهم بكلمة، ولا يجرح مشاعرهم بإشارة أو نحوها، بل يحفظ عليهم كرامتهم وماء وجوههم.

خالق الناس بِخُلُقٍ حَسَنٍ لا تكن كلباً على الناس
 = قال بعضهم: صحبت الربيع بن خيثم عشرين عاماً ماسمعت منه
 كلمة تعاب⁽⁴⁾.

6_ التعميم في الذم:

فتجد من الناس من يغلب عليه جانب المبالغة في إطلاق الأحكام، فتراه يعمم الحكم في ذم طائفة، أو قبيلة، أو جماعة من الناس.

وهذا التعميم قد يوقعه في الحرج دون أن يشعر؛ فقد يكون من بين الحاضرين من يتناولهم ذلك الذم العام؛ فلا ينتبه المتكلم إلا بعد أن تقع الفأس بالرأس.

(1) يعني شيخه ابن تيمية.

(2) بدائع الفوائد لابن القيم 274/2_275.

(3) بهجة المجالس 298/2.

(4) سير أعلام النبلاء 259/4.

بل ربما عرض ذلك الذام نفسه للإساءة، فقد يسيء بصنيعه إلى شخص غضوب لا يتحمل الإساءة، فيقوده ذلك إلى الانتقام والتشفي، ورد الإساءة بمثلها أو أشد.

ولهذا كان من الأهمية بمكان أن يتفطن المرء لهذا الأمر، وأن يتحفظ من سقطات لسانه، وأن يتجنب كل ما يشعر بأدنى إساءة لأحد من الحاضرين؛ فذلك أسلم له، وأحفظ لكرامته.

قال ابن المقفع: = إذا كنت في جماعة قوم أبداً فلا تَعْمَنَّ جيلاً من الناس، أو أمة من الأمم بشتم ولا ذم؛ فإنك لاتدري لعلك تتناول بعض أعراض جلسائك مخطئاً فلا تأمن مكافأتهم، أو متعمداً فتنسب إلى السفه.

ولا تذمن مع ذلك اسماً من أسماء الرجال أو النساء بأن تقول: إن هذا لقبیح من الأسماء؛ فإنك لاتدري لعل ذلك غير موافق لبعض جلسائك، ولعله يكون بعض أسماء الأهلين والحرم.

ة لاتستصغرن من هذا شيئاً؛ فكل ذلك يجرح في القلب، وجرح اللسان أشد من جرح اليد. (1)

7_ كثرة الأسئلة، وتعهد الإحراج فيها:

فالسؤال بحد ذاته ليس مذموم، كمن يسأل صاحبه وجليسه عن صحته، وعن حاله في الجملة؛ فهذا مما يشعر بالاهتمام والمودة.

وكذلك سؤال المرء عما يعنيه من أمر دينه، فهذا مما أمرنا به، وشفاء العيِّ السؤال، قال تعالى: [فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون]. (الأنبياء7)

أما كثرة الأسئلة، والتعنت فيها، وتعهد الإحراج للمسؤول عنها فهذا مما لاينبغي.

وذلك كحال من يسأل عما لايعنيه، وكحال من يسأل الناي عن أمورهم الخاصة، التي لايرتضون أن يطلع عليها أحد غيرهم.

(1) الأدب الكبير والأدب الصغير ص162.

قال عليه الصلاة والسلام: =ويكره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال+(1)
 ثم إن هذا السائل قد يُوقِع نفسه فيما يسوؤه، فلربما عَرَّضَ نفسه لرد موبخ مسكتٍ قال تعالى: [ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم] (المائدة101)
 قال ابن عبدالبرx: =قال تميم بن نصر بن سيار لأعرابي: هل أصابتك تخمة؟
 قال: أما من طعامك فلا+(2)
 =وكان الفرزدق مرة ينشد، والكميت صبي، فأجاد الاستماع إليه، فقال: يا بني، أيسرك أني أبوك؟
 قال: أما أبي فلا أرى به بدلاً، ولكن يسرني أنك أمي، فأفحمه حتى غَصَّ بريقه+(3)
 قال الحكيم:
 ودع السؤال عن الأمور فلبَّ حافر حفرةٍ هو يصرع(4)

8_ سرعة الجواب:

فمن العيوب التي تنافي أدب المحادثة أن يتعجل المرء الجواب، فيجيب دون أن ينهي السائل كلامه، أو يجيب على سؤال لم يُوجَّه إليه مباشرة، بل طرح في مكان عام دون أن يوجه إلى أحد بعينه. وأقبح مافي هذا أن يجيب المرء عن سؤال وُجَّهَ إلى غيره. فهذا كله منافٍ لأدب المحادثة، ودليل على الخفة والطيش، وهو من العجلة المذمومة، التي تزري بصاحبها، وتحط من شأنه، وتورثه الزلل والندم.

(1) رواه أحمد27/2 ومسلم (1715) عن أبي هريرة.
 (2) أدب المجالسة وحمد اللسان، لابن عبد البر ص101.
 (3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني78/2_79.
 (4) عين الأدب والسياسة ص277.

قال عمر بن عبدالعزيز x: =خصلتان لاتعدمانك من الجاهل: كثرة الالتفات، وسرعة الجواب+. (1)

وقال ابن المقفع: =وإذا لم يقصد السائل في المسألة لرجل واحد، وعم بها جماعة من عنده فلا تبادرن بالجواب، ولا تسابق الجلساء، ولا تواتب(2) بالكلام موثبة؛ فإن ذلك يجمع مع شين التكلف والخفة أنك إذا سبقت القوم إلى الكلام صاروا لكلامك خصماء، فتعقبوه بالعيب والطعن.

وإذا أنت لم تعجل بالجواب، وخليته للقوم اعترضت(3) أقاويلهم على عينك، ثم تدبرتها وفكرت فيما عندك، ثم هيأت من تفكيرك ومحاسن ما سمعت جواباً رضيعاً، ثم استدبرت به أقاويلهم حين تصيخ إليك الأسماع، ويهدأ عندك الخصوم.

وإذا لم يبلغك الكلام حتى يكتفي بغيرك، أو ينقطع الحديث قبل ذلك فلا يكون من العيب عندك، ولا من الغبن في نفسك فوث مافاتك من الجواب؛ فإن صيانة القول خير من سوء وضعه، وإن كلمة واحدة من الصواب تصيب موضعها خير من مائة كلمة تقولها في غير فرصها ومواضعها.

مع أن كلام العجلة والبدار موكل به الزلل، وسوء التقدير، وإن ظن صاحبهُ أن قد أتقن وأحكم.

واعلم أن هذه الأمور لاتدرك، فلا تملك إلا برحب الذرع(4) عندما قيل ومالم يقال، وقلة الإعظام لما ظهر من المروءة ومالم يظهر، وسخاوة النفس عن كثير من الصواب مخافة الخلاف، والعجلة، والحسد، والمرء+. (5)

(1) عيون الأخبار 2/39.

(2) لا تواتب: الموثبة التسرع وترك التروي.

(3) عترضت أقاويلهم على عينك: أي تأملتها، وترويت في فهم أبعادها، وخلصت بذلك إلى حسن الإجابة.

(4) ربح الذرع: سعة العلم، وسعة الأفق، وقوة التبصر.

(5) الأدب الصغير والأدب الكبير ص 122_123.

9_ الحرص على إبداء الرأي في كل صغيرة وكبيرة:

فمن الناس من يحرص على إبراز نفسه، وإظهار قدرته وخبرته، وإشعار الآخرين بحنكته وجودة رأيه، فتراه يحرص على إبداء رأيه في كل صغيرة وكبيرة، ويتعجل ذلك فيقول به بمناسبة وبغير مناسبة، وسواء سُئِلَ عن ذلك أم لم يُسأل.

كل ذلك دونما نظر في العواقب، أو مراعاة المصلحة.

وهذا الصنيع مما يتنافى مع الحزم، ومما يعرض صاحبه للزلل والخطل؛ فلا خير في الرأي الفطير، ولا الكلام القضيب⁽¹⁾، فالعرب تقول: =الخطأ زاد العجول+. (2)

فليس من الحكمة أن يتعجل الإنسان إبداء الرأي؛ لأنه ربما جانب الصواب، وخالف الحقيقة، بل ربما قاده ذلك إلى أن يتعصب لرأيه ولو كان غير مصيب؛ كيلا يوصم بالعجلة والزلل.

بخلاف ما إذا تريت وتأنى؛ فإن ذلك أدعى لصفاء القريحة، وأحرى لأن يختمر الرأي في الذهن، وأخلق بالسلامة من الخطأ. والعرب تمدح من يَتَرَيُّثُ، ويتأنى، ويُقَلِّبُ الأمور ظهراً لبطن، وتقول فيه: =إنه لَحُوْلٌ قَلْبٌ+. (3)

بل ليس من الحكمة أن يبدي الإنسان رأيه في كل ما يعلم حتى ولو كان متأنياً في حكمه، مصيباً في رأيه؛ فما كل رأي يُجهر به، ولاكل ما يعلم يقال.

بل الحكمة تقتضي أن يحتفظ الإنسان بآرائه لنفسه إلا إذا استدعى المقام لذلك، واقتضته الحكمة والمصلحة؛ فأراء المرء له، وأقواله عليه؛ فإذا صرح بآرائه صار أسيراً لها، مكبلاً في أغلالها، له غنمها، وعليه غرمها.

(1) الرأي الفطير: هو الذي لم ينضج، والكلام القضيب: هو المرتجل. انظر زهر الآداب للحصري القيرواني 1/154.
(2) مجمع الأمثال للميداني 1/431.
(3) الأمثال لأبي عبيد ص 100.

قال أحد الحكماء: =إن لابتداء الكلام فتنةً تروق، وجدةً تعجب؛ فإذا سكنت القريحة، وعدل التأمل، وصفت النفس فلْيُعيد النظر، وليكن فرحُه بإحسانه مساوياً لغمه بإساءته+. (1)

وقال أحد الشعراء:

وزن الكلام إذا نطقت فإنما بيدي العقول أو العيوب

وقال ابن حبان x: =الرافق لا يكاد يسبق، والعجل لا يكاد يلحق. (2)

وكما أن من سكت لا يكاد يندم كذلك من نطق لا يكاد يسلم. والعجل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يُجرب، ويذم بعد ما يحمد.

يعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم.

والعجل تصحبه الندامة، وتعتزله السلامة، وكانت العرب تسمي العجلة أم الندامات+. (3)

10_التعرض للسفلة والسفهاء:

فهناك من الناس من لا يأنف من مجارة السفهاء، والتعرض للسفلة؛ فإذا ما جمعه بهم مجلس توسع في الحديث معهم، وتمادى في مضاحكتهم وممازحتهم.

مما يجعله عرضة لسماع ما لا يرضيه من ساقط القول وقبيحه، فيصبح بذلك مساوياً لهم في سفههم وسفالتهم؛ إذ نزل إليهم، وانحط في حضيضهم.

إذا جاريت في خلقٍ دنيئاً فأنت ومن تجاربه سواء (4)

فليس من الحكمة ولا المروءة أن يتعرض المرء لهؤلاء، وإنما الحكمة وتمام المروءة أن يُعرض المرء عنهم، ويدع مجاراتهم

(1) زهر الآداب/1/154.

(2) روضة العقلاء ص216.

(3) روضة العقلاء ص216.

(4) ديوان أبي تمام/4/296 وانظر أقوال مأثورة ص15.

والحديث معهم إلا بقدر ماتدعو إليه الحاجة؛ من سلام أو ردّه، أو جواب لسؤال، أو نحو ذلك.

لا تُرْجِعَنَّ إِلَى السَّفِيهِ خِطَابَهُ إِلَّا جَوَابَ تَحِيَّةٍ حَيَّاكَهَا
فَمَتَى تُحَرِّكُهُ تُحَرِّكْ جِيفَةً تَزْدَادُ نَتْنًا إِنْ أَرَدْتَ جِرَاكَهَا(1)

وإذا ما أراد السفيه أن يبدأ بالسفه فما أجمل الإعراض عنه، وتجاهله؛ كي يُقصر عن غيِّه وسفهه.

أعرض عن الجاهل السفيه فكل مقال فهو فيه
ماضراً نهر الفرات يوماً لو خاض بعض الكلاب فيه(2)

فمن أعرض عن الجاهلين، وترك مجارة السفهاء حمى عرضه، وأراح نفسه، وسلم من سماع مايؤذيه.

قال تعالى [خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين] (الأعراف:199).

فبالإعراض عن هؤلاء يحفظ الرجل على نفسه عزتها؛ إذ يرفعها عن الطائفة التي تلذُّ المهاترة والإقذاع.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: =ولا تمار حليماً ولا سفيهاً؛ فإن الحليم يقلبك، والسفيه يؤذيك+(3).

قال بعض الشعراء:

إِنِّي لِأَعْرِضُ عَنْ أَشْيَاءَ حَتَّى يَقُولَ رَجَالٌ إِنِّي بِي حُمْقًا
أَخْشَى جَوَابَ سَفِيهِ لِأَخْلَاقَ لَهُ فَسَلِّ وَظَنَّ أَنَا أَنَّهُ صَدَقَا(4)

وقال الخطابي: =أنشدني ابن مالك، قال أنشدني الدُّغُولِي فِي سِيَاةِ الْعَامَةِ:

(1) الحلم لابن أبي الدنيا ص32.

(2) ديوان الشافعي ص90 تحقيق الزعبي.

(3) العزلة للخطابي ص134_135.

(4) عيون الأخبار 1/284.

إذا أمن الجهالُ جهلك مرةً فَعَرَضُكَ لِلْجَهَالِ عُنْمٌ مِنَ الْعُنْمِ
 وإن أنت نازيت السفيه إذا فأنت سفيهٌ مثله غير ذي حِلْمٍ
 ولا تتعرض للسفيه وداره (1) ::
 فيخشاك تاراتٍ ويرجوك مرّةً بمنزلةٍ بين العداوة والسلمِ
 قال ابن المقفع: = واعلم أنك ستبتلي من أقوام بسفه سيطلع منك
 حقداً.

فإن عارضته، أو كافأته بالسفه فكأنك رضيت ما أتى به؛ فأحببت
 أن تحتذي على مثاله.

فإن كان ذلك عندك مذموماً فَحَقِّقْ ذَمَّكَ إِيَّاهِ بِتَرْكِ مَعَارِضَتِهِ.

فأما أن تذمه وتمتله (3) فليس في ذلك سداد+. (4)

11_ الحديث بما لا يناسب المقام:

فهناك من لا يأبه بمناسبة الحديث للمقام، ولا بملائمته ومطابقتها
 لمقتضى حال السامعين، فتراه يتكلم بالهزل في مواقف الجد، ويحاول
 إضحاك السامعين في مجلس يسوده الحزن.

قال ابن المقفع: = ولا تخلطن بالجد هزلاً، ولا بالهزل جدًا، فإنك إن
 خلطت بالجد هزلاً هَجَّنْتَهُ، وإن خلطت بالهزل جدًا كَدَّرْتَهُ.

غير أنني قد علمت موطناً واحداً إن قدرت تتقبل فيه الجد بالهزل
 أصبت الرأي وظهرت على الأقران.

وذلك أن يتورّدك (5) مُتَوَرِّدٌ بالسفه، والغضب، وسوء اللفظِ تجييه
 إجابة الهازل المداعب برُحْبٍ من الذرع، وطلاقةٍ من الوجه، وثبات
 من المنطق+. (1)

(1) نزا: وثب وأراد الشر.

(2) العزلة للخطابي ص 206_207.

(3) تمتله: تحتذيه وتسلط طريقه.

(4) الأدب الصغير والأدب الكبير ص 155.

(5) يتورّدك: يملكك على أن تغتاض أو تغضب؛ لتتخلى عن اتزانك.

وقال: =واتق الفرح عند المحزون، واعلم أنه يحقد على المنطلق،
(2) ويشكر للمكتتب+. (3)

ومن الناس من يخاطب الأذكىء بخطابٍ لايناسب إلا قاصري
العقول، وربما خاطب محدودي الذكاء والإدراك بكلام لاتدرکه
أفهامهم، وهكذا...

ومن كذاك يفقد الكلام قيمته، ويصبح ضرباً من الهذيان، بل ربما
عَرَضَ صاحبه للمز الناس وعبئهم إياه.
وإنَّ كلامَ المرءِ في غير كنهه لكا النبل تهوي ليس فيها
بل ربما ألحق بغيره ضرراً من حيث لايشعر؛ فقد يحادث شخصاً
ذا نفسٍ متوترة، مغرقة في التشاؤم، فيخاطبه على أنه إنسان سوي،
فيزيد هذا الشخص توتراً، وبلاءً.

وقد يزور مريضاً، فيحدّثه بما لايناسب حاله، فيؤثر في نفس
المريض، فيزيد الطين بلة، والمرض علة.

ولأسباب وغيرها عني الإسلام عنايةً كبيرة بموضوع الكلام،
وأسلوب أدائه؛ ذلك أن الكلام الصادر عن إنسان ما يشير إلى حقيقة
عقله، وطبيعة خلقه، ولأن طرائق الحديث في جماعة ما تحكم على
مستواها العام، وتغلغل الفضيلة فيها. (4)

ثم إن طرائق الكلام تختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ ولهذا
عُرِّفت البلاغة بأنها: مطابقة الكلام لمقتضى حال السامعين. (5)

ومن هن كان من الأهمية بما كان أن يتعرف المرء على أحوال
الناس، وأن يراعي عقولهم.

-
- (1) الأدب الصغير والأدب الكبير ص133.
 - (2) المنطلق: الذي يبدو الفرح على أساريره.
 - (3) الأدب الصغير والأدب الكبير ص159.
 - (4) انظر خلق المسلم ص77.
 - (5) انظر بغية الإيضاح لتخليص المفتاح لعبد المتعال الصعيدي 26/1.

فهذا الأمر دليل على جودة النظر في سياسة الأمور، وعلى حسن التصرف في تقدير وسائل الخير، وهو مما يعين على اكتساب الأخلاق الرفيعة، وعلى استبقاء المودة في قلوب الناس.

فالرجل العاقل الحكيم الحازم يحكم هذا الأمر، وينتفع به عند لقائه بالطبقات المختلفة، فتراه = يَزِنُ عقولَ مَنْ يلاقونه، ويحس مائِكُنْ صدورهم، وتنزع إليه نفوسهم، فيصاحب الناس، ويشهد مجالسهم، وهو على بصيرةٍ مما وراء ألسنتهم من عقولٍ، وسرائرٍ، وعواطفٍ.

فيتيسر له أن يسايرهم إلا أن ينحرفوا عن الرشد، ويتحامي ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق.

ومراعاة عقول الناس، وطباعهم، ونزعاتهم فيما لا يُقَعِدُ حقاً، ولا يقيم باطلاً مظهر من مظاهر الإنسانية المهذبة+. (1)

قال ابن المقفع: = لاتجالس امرأً بغير طريفته؛ فإنك إذا أردت لقاء الجاهل بالعلم، والجافي بالفقه، والعيبي بالبيان لم تزد على أن تضيع علمك، وتؤدي جليسك بِحَمَلِكْ عليه ثَقَلْ ما لا يعرف، وغمك إياه بمثل ما يغتم به الرجلُ الفصيح في مخالطة الأعجمي الذي لا يفقه عنه.

واعلم أنه ليس من علم تذكره عند غير أهله إلا عابوه، ونصبوا له، ونقضوه عليك، وحرصوا على أن يجعلوه جهلاً.

حتى إن كثيراً من اللهو واللعب الذي هو أخفُ الأشياء على الناس_ لِيَحْضُرُهُ من لا يعرفه، فيثقل عليه، ويغتم به+. (2)

وقال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي x: =ومن الآداب الطيبة الكلام مع كل أحد بما يليق بحاله ومقامه؛ مع العلماء بالتعلم والاستفادة والاحترام، ومع الملوك والرؤساء بالاحترام والكلام اللطيف اللين المناسب لمقامهم، ومع الإخوان والنظرء بالكلام الطيب، ومطارحة الأحاديث الدينية والدنيوية والانبساط الباسط للقلوب، المزيل للوحشة، المزين للمجالس.

(1) رسائل الإصلاح لمحمد الخضر حسين 95/1.

(2) الأدب الصغير والأدب الكبير ص 158.

ويحسن المزاج أحياناً إذا كان صدقاً، ويحصل فيه هذه المقاصد. ومع المستفيدين من الطلبة ونحوهم بالإفادة، ومع الصغار والسفهاء بالحكايات والمقالات اللائقة بهم بما يبسطهم ويؤنسهم، ومع الأهل والعيال بالتعليم للمصالح الدينية والدنيوية، والتربية البيتية، وتوجيههم للأعمال التي تنفعهم مع المباشرة والمفاكهة؛ فإنهم أحق الناس ببرك، ومن أعظم البر حسن المعاشرة.

ومع الفقراء والمساكين بالتواضع، وخفض الجناح، وعدم الترفع والتكبر عليهم.

فكم حصل بهذا من خيرات و بركات، وكم حصل بضده من شر وفوات خير.

ومع من تعرف منه العداوة والبغضاء والحسد بالمجاملة، وعدم الخشونة، وإن أمكنك الوصول إلى أعلى الدرجات، وهي قوله تعالى [ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم] (فصلت: 34) فما أكمله من مقام لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم+. (1)

وكما أن مطابقة الكلام لعقول الناس ومقتضيات أحوالهم عائدٌ إلى الألمعية، التي هي في أصلها موهبة إلهية فهو كذلك يأتي بالدربة والممارسة، وتدبر سير أعظم الرجال، والنظر في مجاري الحوادث باعتبار، فهذا مما يقوي هذه الخصلة ويرفع من شأنها.

ولئن كان مقتضى الأحوال حسناً مطلوباً من كل أحد فهو من الخطيب حال الخطابة أولى وأحرى؛ فمراعاة مقتضى الحال هو لبُّ الخطابة وروحها، فلكل مقام مقال، ولكل جماعة من الناس لسان تُخاطب فيه؛ فالأغنياء يرضي كبرياءهم نوعٌ من الكلام لا يقتضيه مقام الخطبة لمن ليسوا كذلك.

(1) الرياض الناضرة ص 458_549 ضمن مجموعة ابن سعدي.

والعلماء يجتذبهم الثناء الحسن، وطيب الأحداث، والتوقير، والتعظيم، وأن يكون الكلام الذي يلقي عليهم أقرب إلى العمق والسلامة؛ ليسترعي انتباههم.

ثم إن الجماعة النائرة تخاطب بعبارات هادئة؛ لتكون برداً وسلاماً على القلوب.

والجماعة الخنيسة تخاطب بعبارات مثيرة للحمية، موقظة للهمة، حافزة للعزيمة.

والجماعة التي شطت وركبت رأسها تخاطب بعبارات فيها قوة العزم، ونور الحق، وفيها إرعاة المنذر، ويقظة المنقذ، وفيها روح الرحمة، وحسن الإيثار؛ ليجتمع الترهيب مع الترغيب، ومع سيف النعمة ريحان الرحمة.

لذلك وجب على الخطيب أن يكون قادراً على إدراك حال الجماعة، وما تقتضيه تلك الحال، والإتيان بالأسلوب الذي يلائمها؛ ليصل إلى مواضع التأثير فيها. (1)

12_ الحديث عند من لا يرغب:

فتجد من الناس مَنْ قَدْ مَرَدَ عَلَى الْقِحَّةِ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ الْهَوَانَ، فَتَرَاهُ يَبْذُلُ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ، فَيُتَصَدَّرُ الْحَدِيثَ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَهُمْ عَنْهُ لَاهُونَ، وَلَهُ مُسْتَنْقَلُونَ، وَلَحْدِيثُهُ غَيْرُ رَاغِبِينَ.

ومع ذلك يستمر في جهله وغيه.

وهذا لا ينبغي ولا يحسن من ذي المروءة.

=قال مُطَرِّفُ: لا تطعم طعامك من لا يشتهيهِ+. (2)

يريد لا تقبل على من لا يقبل عليك بوجهه.

وقال أبو عبّاد: =ينبغي للمحدّث إذا أنكر من السامع أن يستفهمه عن معنى حديثه، فإن وجده قد أخلص له الاستماع أتم له الحديث،

(1) انظر الخطابة لأبي زهرة ص 43 و 45_46.

(2) عيون الأخبار 307/1.

وإن كان لاهياً عنه حرمة حسن الاستقبال عليه، ونفع المؤانسة له،
وعرّفه بسوء الاستماع والتقصير في حق المحدث+. (1)
وقال: =نشاط المحدث على قدر فهم السامع+. (2)
وكان ابن مسعود ÷ يقول: =حدّث الناس ما حدّجوك (3) بأسماعهم،
ولحظوك بأبصارهم، فإن رأيت منهم فتوراً فأمسك+. (4)
وقال البيهاني: =وإذا رأيت من جليتك الإعراض عنك، أو
الاشتغال بأمرٍ آخر_ فلا تكلمه، ولا تكلفه الاستماع إليك+. (5)
وقال أحدهم:

يستوجب الصّفْع في الدنيا لالوم في واحدٍ منهم إذا صُفعا
ثم ذكر منهم:

ومتحفٌ بحديثٍ غير سامعه وداخلٌ في حديثٍ اثنين
ولا يدخل في ذلك كراهيةُ الفساق والمجرمين لحديث الداعي إلى
الله، والأمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، خصوصاً إذا كان لطيفاً
حكيماً؛ فالعيب ليس فيه وإنما هو فيهم.
وما على العنبرِ الفوّاحِ من أن مات من شمّه الزبّالُ
١١ ٢٠

13_ تكرر الحديث:

فهذا من عيوب الكلام، وهو مما يورث الملامة، ويولد السامة.
وهناك من يذكر الحادثة أو القصة في المجلس الواحد مرات عديدة.
وهناك من يكرر كلامه كثيراً بلا مسوغ، مما يجعل الأذواق تمّجّه،
والأذان تستنك من سماعه.

(1) زهر الآداب للحصري/195/1.

(2) زهر الآداب للحصري/195/1.

(3) حدّجوك: وجهوها نحوك.

(4) زهر الآداب/195/1.

(5) إصلاح المجتمع للبيهاني ص360.

(6) إصلاح المجتمع للبيهاني ص360.

= قال محمد بن صبيح المعروف بالسماك لجاريته: كيف ترين ما أعظ الناس؟

قالت: هو حسن، إلا أنك تكرره.

قال: إنما أكرره؛ ليفهمه من لم يكن فهمه.

قالت: إلى أن يفهمه البطيء يثقل على سمع الذكي + (1)

= واستعيد (2) ابن عباس حديثاً فقال: لو لا أنني أخاف أن أغض من

بهائه، وأريق من مائه، وأخلق من جدته لأعدته + (3)

وقال أبو تمام يصف قصائده:

منزهة عن السرِّق المورِّى مكرمة عن المغنى المعاد (4)

وقال الآخر:

إذا تحدثت في قوم؛ لثوَّنَسَهُم من الحديث بما يمضي وما

فلا تُكْرِرْ حديثاً إن طَبَعَهُمْ مَوَكَّلٌ بمعادة المعادات (5)

أما إذا احتيج إلى التكرار، وكان فيه زيادة فائدة، ولم يكن موصلاً إلى حد الملل فلا بأس به.

14_التعالي على السامعين:

فمن الناس من إذا تحدث إلى أناس تعالي عليهم، وأزرى بهم. وربما أشعر ولو من طرف خفي بأن السامعين لا يعون كلامه، ولا يدركون مراميه.

بل ربما تلمَّظ برطانة الأعاجم، وأدرجها في ثنايا حديثه بلا داع لذلك، وإنما قالها ليترفع على السامعين، وليظهر فضله عليهم!

والتعالي على الآخرين دليل السفه، وآية نقص العقل، وإلا فالكريم العاقل يرفع من شأن الآخرين، ولا يترفع أو يتعالي عليهم.

(1) زهر الآداب 1/196.

(2) استعيد: طلب منه إعادته.

(3) زهر الآداب 1/196.

(4) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي 1/382.

(5) إصلاح المجتمع ص 360.

قال ابن المقفع: =تَحَفُّظٌ في مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحاب، وطِبُّ نفساً عن كثيرٍ مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي؛ مداراةً؛ لئلا يظن أصحابك أن دأبك التطاول عليهم+. (1)

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي x: =واحذر غاية الحذر من احتقار من تجالسه من جميع الطبقات، وازدرائه، والاستهزاء به قولاً، أو فعلاً، أو إشارةً أو تصريحاً، أو تعريضاً؛ فإن فيه ثلاثة محاذير: أحدها: التحريم، والإثم على فاعل ذلك.

الثاني: دلالة على حمق صاحبه، وسفاهة عقله، وجهله.

الثالث: أنه باب من أبواب إثارة الشر، والضرر على نفسه+. (2)

15_ ترك الإصغاء للمتحدث:

وذلك بمقاطعته، ومنازعة الحديث، أو بالتشاغل عنه بقراءة جريدة، أو كتاب، أو متابعة متحدث آخر.

ومن ذلك الإشاحة بالوجه عن المتحدث، أو إجماله النظر عنه يمينا ويسرة.

كل ذلك مما ينافي الأدب في المحادثة، ومما يدل على قلة المروءة. فينبغي للمرء أن يتجافى عن هذا الخلق الذميم، وأن يحسن الأدب مع من يَنْقَصُ دُهُ بالحديث، ومع من يتحذأ أمامه.

فمن أدب المروءة حسن إصغاء الرجل لمن يحدثه من الإخوان؛ فإن إقباله على محدثه بالإصغاء إليه يدل على ارتياحه لمجالسته، وأنسه بحديثه. (3)

بل إن المتحدث البارِع هو المستمع البارِع؛ فأحسن الاستماع، ولا تقاطع من تحدثه، بل شجعه على الحديث بحسن إنصاتك؛ كي يقابلك بالمثل.

وبراعة الاستماع تكون بالإذن، وطرف العين، وحضور القلب، وإشراق الوجه. (1)

(1) الأدب الصغير والأدب الكبير ص134.

(2) الرياض الناضرة ص419.

(3) انظر رسائل الإصلاح 212/1.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: =لجليسي على ثلاث: أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأن أوسع له في المجلس إذا جلس، وأن أصغي إليه إذا تحدث+. (2)

وقال عمرو بن العاص: ÷ =ثلاثة لأملهم: جليسي ما فهم عني، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حملت رجلي+. (3)

وقال سعيد بن العاص: =لجليسي عليّ ثلاث: إذا أقبل وسعنتُ له، وإذا جلس أقبلت إليه، وإذا حدّث سمعتُ منه+. (4)

وقال الحسن: =إذا جالست فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلّم حسن الاستماع كما تعلّم حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه+. (5)

وقال أبو عباد: =للمحدّث على جليسه السامع لحديثه أن يجمع له باله، ويصغي إلى حديثه، ويكتم عليه سره، ويبسط له عذره+. (6)

=وذكر رجل عبد الملك بن مروان فقال: إنه أخذ بأربع، تارك لأربع: أخذ بأحسن الحديث إذا حدّث، وبأحسن الاستماع إذا حدّث، وبأحسن البشر إذا لقي، وبأيسر المؤونة إذا خولف.

وما كان تاركاً لمحادثة اللئيم، ومنازعة اللجوج، وممارة السفية، ومصاحبة المأبون(7)+. (8)

=وذكر الشعبي قوماً، فقال: ما رأيت مثلهم أشدّ تناوباً في مجلس، ولا أحسن فهماً من محدث+. (9)

16_ الاستخفاف بحديث المتحدث:

(1) انظر كيف تحاور د. طارق الحبيب ص 21.

(2) عيون الأخبار 1/306.

(3) عيون الأخبار 1/307.

(4) المنتقى من مكارم الأخلاق للخرائطي، انتقاء أبي الطاهر السلفي ص 54.

(5) المنتقى من مكارم الأخلاق ص 155.

(6) زهر الآداب 1/195.

(7) المأبون: المتهم بالسوء والذي يرمى بالقبيح.

(8) عيون الأخبار 1/307.

(9) عيون الأخبار 1/308.

فمن الناس من إذا سمع متحدثاً يتحدث في مجلس، وبدر من ذلك المتحدث خطأ يسير أو نحو ذلك سَفَّهه، وبكَّته، واستخف بحديثه. ومن هذا القبيل ما يوجد عند بعض الناس، فما أن يتكلم أحد في مجلس إلا وتبدأ بينهم النظرات المريية، التي تحمل استخفافاً وسخرية بالمتحدث.

وهذا الصنيع لا يحسن أبداً، وليس من صفات عظماء الرجال وأكابرهم؛ فهم يُجلُّون من يحدثهم، ولا يرضون بإهانتهم في حضرتهم طالما أنه لم يَحْدُ عن الرِّشد، حتى ولو أخطأ؛ فإنهم يتغاضون عن خطئه، ويتعامون عن زَلَّتِهِ، وإذا ما كان الخطأ كبيراً فإنهم يبينون الخطأ، ويرشدون إلى الصواب بأجمل عبارة، وأطف إشارة. قال ابن حبان^x: =أنبأنا أبو يعلى حدثنا عبدالله بن حمد بن أسماء، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا معاذ بن سعد الأعور قال: كنت جالساً عند عطاء ابن أبي رباح، فحدث رجل بحديث، فعرض رجل من القوم في حديثه.

قال: فغضب، وقال: ماهذه الطباع؟ إني لأسمع الحديث من الرجل، وأنا أعلم به، فأريه كأني لأحسن شيئاً+. (1)

17_المبادرة إلى إكمال الحديث عن المتحدث:

فهناك من إذا تحدت أحد أمامه بحديث، أو قصة، أو خير، وكان يعلم ذلك من قبل يادر إلى إكمال ذلك عن المتحدث، إما بقصد الإساءة إليه، وإما بإشعاره وإشعار السامعين بأن حديثه معاد مكرور، وإما ليبين أنه يعلم ذلك من قبل.

وهذا ليس من صفات ذي المروءة؛ إذ المروءة تقتضي أن تنصت للمتحدث ولو كنت تعلم حديثه من قبل.

قال المدائني: =أوصى خالد بن يحيى ابنه فقال: يابني، إذا حدتكَ جليسك حديثاً فأقبل عليه، وأصغ إليه، ولا تقل قد سمعته وإن كنت

(1) روضة العقلاء ص72، وانظر صفة الصفة لابن الجوزي 144/2.

أحفظ له_وكأنك لم تسمعه إلا منه_؛ فإن ذلك يكسبك المحبة والميل إليك+. (1)

وقال ابن سعدي: =ومن الآداب الطيبة إذا حدّثك المحدث بأمر ديني أو دنيوي ألا تنازعه الحديث إذا كنت تعرفه، بل تصغي إليه إصغاء من لا يعرفه، ولم يَمُرَّ عليه، وتريه أنك استفدت منه، كما كان ألباء الرجال يفعلونه.

وفيه من الفوائد تنشيط المحدث، وإدخال السرور عليه، وسلامتك من العجب بنفسك، وسلامتك من سوء الأدب؛ فإن منازعة المحدث في حديثه من سوء الأدب+. (2)

وإلى هذا المعنى الجميل يشير أبوتمام بقوله:
من لي بإنسان إذا أغضبتَه وجهلتَ كان الحلمُ ردَّ جوابِه
وتراه يصغي للحديث بسمعه وبقلبه ولعله أدري به(3)

قال ابن المقفع: =وإذا رأيت رجلاً يحدث حديثاً قد علمته، أو يخبر خبراً قد سمعته_ فلا تشاركه فيه، ولا تتعقّبهُ عليه؛ حرصاً على أن يعلم الناس أنك قد علمته؛ فإن في ذلك خفةٌ، وسوء أدب، وسخفاً+. (4)
وقال: =ومن الأخلاق التي أنت جدير بتركها_ إذا حدّث الرجل حديثاً تعرفه ألا تسابقه إليه، وتفتحه عليه، وتشاركه فيه؛ حتى كأنك تظهر للناس أنك تريد أن يعلموا أنك تعلم مثل الذي يعلم.
وما عليك إلا أن تُهنئه بذلك، وتفرده به.
وهذا الباب من أبواب البخل، وأبوابه الغامضة كثيرة+(5)

(1) بهجة المجالس 43/1، وانظر تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم لابن جماعة ص 156_157.

(2) الرياض الناضرة ص 548.

(3) أقوال مأثورة ص 285 عن طرائق الحكمة 73/1.

(4) لأدب الكبير والأدب الصغير ص 136.

(5) الأدب الكبير والأدب الصغير ص 162.

قال ابن عبد البر^x: =ومن سوء الأدب في المجالسة أن تقطع على جليسك حديثه، وأن تتبدره إلى تمام ما ابتدأ به منه خبراً كان أو شعراً تتم له البيت الذي بدأ به؛ تريه أنك أحفظ له منه، فهذا غاية في سوء المجالسة، بل يجب أن تصغي إليه كأنك لم تسمعه قط إلا منه+. (1)

وقال ابن جريج عن عطاء: =إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه وقد سمعته قبل أن يولد+. (2)

18_ القيام عن المتحدث قبل أن يكمل حديثه:

فهذا من قلة الأدب، ومما ينافي إكرام الجليس، فلا يسوغ للمرء أن يقوم عن المتحدث قبل أن يكمل حديثه؛ لما في ذلك من استجلاب الضغينة، واحتقار المتحدث إلا إذا احتاج السامع للقيام، واستأذن من محدثه فهنا ينتفي المحذور.

قال أبو مجلز: =إذا جلس إليك رجل يتعمدك فلا تقم حتى تستأذنه+. (3)

وقال أسماء ابن خارجة: =ما جلس إلي رجل إلا رأيت له الفضل علي حتى يقوم عني+. (4)

19_ المبادرة إلى تكذيب المتحدث:

فمن الناس من إذا طرقت سمعه كلام غريب من متحدث ما يبادر إلى تكذيبه، وتفنيده قوله، إما تصريحاً، أو تلميحاً، أو إشارةً باليد أو العين، وأن يهمز من بجانبه؛ ليشعره بأن المتحدث كاذب. فهذا العمل من العجلة المذمومة، ومن إساءة الظن بمن يتحدث، وهو مما ينافي كمال الأدب والمروءة.

فينبغي لمن استمع حديثاً من أحد ألا يبادر إلى تكذيبه، بل عليه أن يُنصت له، وإن رأى في هذا في الحديث وجه غرابية فلا يستعجل

(1) بهجة المجالس 1/162.

(2) سير أعلام النبلاء 5/86، وتذكرة السامع والمتكلم ص 157.

(3) المنتقى من مكارم الأخلاق ص 153.

(4) المنتقى من مكارم الأخلاق ص 153.

الحكم عليه بالكذب، بل يستفصل من المتحدّث، لعله يُبين له وجهته وأدلتها.

ثم إن تأكد من كذبه فليصح له على انفراد؛ لئلا يعاود الكذب مرةً أخرى.

فإن عاد إليه، واقتضت المصلحة أن يُبيّن كذبه_ فلا بأس حينئذ من ذلك؛ حتى يرتدع من تلك الخصلة الذميمة.

قال عبدالله بن عمرو بن العاص_ رضي الله عنهما_ : =ثلاثة من قريش أحسنها أخلاقاً، وأصبحها وجوهاً، وأشدها حياءً، إن حدثوك لم يكذبوك، وإن حدثتهم بحق أو باطل لم يكذبوك، وإن حدثتهم بحق أو باطل لم يكذبوك: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة ابن الجراح+. (1)

20_ التقصير في محادثة الصغار:

فلمحادثة المربي صغاره فائدة عظيمة، وللحوار الهادئ معهم أهمية كبرى، ولتعليمهم آداب الحديث وطرائقه وأساليبه ثمرات جُلى؛ فبذلك ينمو عقل الصغير، وتتوسع مداركه، ويزداد رغبةً في الكشف عن حقائق الأمور، ومجريات الأحداث.

كما أن ذلك يكسبه الثقة في نفسه، ويورثه الجرأة والشجاعة الأدبية، ويشعره بالسعادة والطمأنينة، والقوة والاعتبار.

مما يعده للبناء والعطاء، ويؤهله لأن يعيش كريماً شجاعاً، صريحاً في حديثه، جريئاً في طرح آرائه.

ومع أهمية هذا الأمر وعظم فائدته إلا أن هناك تقصيراً كبيراً فيه؛ فكثير من الناس لا يأبه بمحادثة الصغار ولا يلقي بالاً لتعليمهم آداب الحديث و أساليبه؛ فتراه لا يصغي إليهم إذا تحدثوا، ولا يجيب عن أسألتهم إذا هم سألوا، بل ربما كذبهم إذا أخبروا، ونهرهم وأسكتهم إذا تكلموا.

(1) عيون الأخبار 23/3.

وهذا من الخلل الفادح، والتقصير الكبير؛ فهذا الصنيع مما يولد الخوف في نفس الصغير، كما يورثه التردد، والذلة، والمهانة، والخجل الشديد، وفقدان الثقة بالنفس.

بل قد يجر له أضراراً تؤثر في مستقبله ومسيرة حياته؛ فقد يعجز عن الكلام، وقد يصاب بعيوب النطق من فأفة، وتمتمة، ونحوها. وقد يصاب بمرض، وقد يعاني من مشكلات فيزداد مرضه، وتتضاعف مشكلاته؛ بسبب عجزه عن الإخبار عما أصابه وألم به. وقد يُظلم أو توجه له تهمة، فيؤخذ بها مع أنه بريء منها؛ لعجزه عن الدفاع عن نفسه، وعن نفي ما علق وألصق به.

وقد تضطره الحال لأن يتكلم أمام زملائه، فيرى أن الألفاظ لاتسعه؛ فيشعر بالنقص خصوصاً إذا وُجد من يسخر منه.

ولهذا كان حرياً بالمربين من والدين ومعلمين وغيرهم أن يعنوا بهذا الجانب، وأن يراعوه حق رعايته.

فيحسن بهم إذا خاطبهم الصغار أن يُقبلوا عليهم، وأن يصغوا إلى حديثهم، وأن يجيبوا عن أسئلتهم، وأن ينأوا عن كل ما يشعر باحتقار الصغار وازدراءهم.

كما يحسن أن يُشعر الصغير بأهمية حديثه، وأن يظهر له الإعجاب وحسن المتابعة، وذلك بإصدار بعض الأصوات أو الحركات التي تنم عن ذلك، كأن يقول الكبير وهو يستمع لصغيره: حسن، جميل، رائع، نعم.

أو أن يقوم بالمهمة، أو تحريك الرأس تصعيداً وتصويباً. بل تحسن المبادرة في هذا الأمر، كأن يعمد الكبير لاستشارة صغيره كي يتكلم، كأن يسأله بعض الأسئلة اليسيرة التي يعرفها الصغير، فيقول على سبيل المثال: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وأن يسأله عن بعض الأمور التي يراها أو يعلمه من خلال حياته اليومية.

كذلك يجمل في هذا الشأن استشارة الصغير في بعض الأمور البسيطة؛ من باب شحذ قريحته، واستخراج مآلديه من أفكار، وإعائته على التعبير عنها.

كأن يسأله عن رأيه في أثاث المنزل، أو لون السيارة، أو عن زمان الرحلة، أو مكانها، أو نحو ذلك.

ثم يوازن بين رأي الصغير وآراء إخوانه و زملائه، ثم يطلب من كل واحد أن يبدي مسوغاته، وأسباب اختياره لهذا الرأي أو ذاك.

فكم في مثل هذه الأمور اليسيرة من الأثر العظيم والثمرات الجليلة.

إن تدريب الصغير على أدب المحادثة، وتعويده على الحوار الهادئ والمناقشة الحرة يقفز بالمربين إلى قمة التربية والبناء؛ فبسبب ذلك ينطلق الطفل، ويستطيع التعبير عن آرائه، والمطالبة بحقوقه، فينشأ حراً كريماً أبيضاً، فيكون في المستقبل ذا حضورٍ مميز، ويكون لأرائه صدقاً في النفوس؛ لأنه تربى منذ الصغر على آداب الحديث وطرائقه.

ثم إن هذا مما يشعر الصغار بقيمتهم، ومما يستثيرهم لتحريك أذهانهم، وشحذ قرائحهم، وتنمية مواهبهم.

كما أن فيه تدريباً لهم على حسن الاستماع، والقدرة على ترتيب الأفكار، وحسن الاسترجاع لما مضى، وفهم مايلقى عليهم من الآخرين.

كما أن فيه تنميةً لشخصية الصغير، وتقويةً لذاكرته.

كما أن ذلك يزيد قرباً ومحبةً لوالديه ومربيه.

هذا وقد وُجد أن الأطفال الأذكى يتكلمون أسرع من الأطفال الأقل ذكاءً، ووجد أن الأطفال المحرومين عاطفياً، والذين لا يكلمهم آبائهم وأمهاتهم إلا نادراً_ أنهم يكونون أقلّ قدرةً على الكلام من الذين يلاطفه والدوهم.

وليس المقصود مما مضى أن يُسرف في إعطاء الحرية المطلقة للصغير، فيلقي له الحبل على الغارب، ويفتح الباب على مصراعيه، فيسمح له بالصفاقة والوقاحة، ويُرضى عن تطاوله وإساءته، ويُضحك

له إذا صدر منه عباراتٌ نابية أو كلمات ساقطة؛ زعماً أن ذلك من باب إعطائه الفرصة وتدريبه على الكلام!

لا، ليس الأمر كذلك؛ فالرضا عن سفاوته وتطاوله يغريه بقلّة الأدب، والضحك له حال صدور الكلمات القبيحة منه يعد حافظاً له بتكرارها.

فالمقصود أن يؤخذ بيده إلى الآداب المرعية، وأن يدرّب على الكلام في حدود الأدب واللياقة بعيداً عن الإسفاف والصفاقة.⁽¹⁾

21_الوقعية في الناس:

فهناك من إذا جلس مجلساً وقع في الناس، ورتع في أعراضهم، وأطلق لسانه في ذمهم وعيبيهم، غيبة، ونميمة، وافتراءً، وبهتاناً.

فالغيبة هي كما قال النبي "ذكرك أخاك بما يكره".⁽²⁾

والنميمة هي نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد.

وهما لا يصدران إلا من نفسٍ مهينة، دنيئة، وضيعة؛ فكم فسد بسببهما من صداقة، وكم نَقَطَّتْ من أوامر، وكم تحاصَّت من أرحام.

وإن مما يزيد الطين بلة أن تجد الغيبة والنميمة آذاناً مصيخة، وأفئدة مصغية.

فمن أصاخ السمع، وأصغى الفؤاد لمن ينم أو يغتاب_ فهو مشارك له في الإثم.

ومن أطاع الوشاة وصدقهم فيما يقولون_ فلن يبقى له صديق ولو كان أقرب قريب.

ومن يطع الواشين لا يتركوا له صديقاً ولو كان الحبيب

١١ : (3)

(1) انظر تربية الأطفال في رحاب الإسلام لمحمد الناصر وخولة درويش ص323_325، ومشكلات تربوية في حياة طفلك لمحمد رشيد العويد ص37_41.

(2) رواه مسلم (2589) عن أبي هريرة.

(3) ديوان الأعشى ص9.

وهناك من يطلق لسانه في أعراض الناس يلتقط معايبهم، أو يخلق لهم معايب من تلقاء نفسه، متخيلاً أنه يحظى باسم المروءة من إصاق العيب بغيره.

والعرب تقول: =فلان يتمراً بنا+ أي يطلب المروءة بنقصنا وعيبنا. أما صاحب المروءة الصادقة فيبخل بوقته عن هذه الطوية الحقيرة، ولا يرضى إلا أن يشغله بما تتقاضاه المروءة من حقوق. (1)
وأجراً من رأيت بظهر غيب على عيب الرجال ذوو
الشافعي (2).

قال الشافعي X:

المرء إن كان عاقلاً ورعاً أشغله عن عيوب غيره ورَعُهُ
كما العليل السقيم أشغله عن وجع الناس كلهم وَجَعُهُ (3)

=وربما اضطر صاحب المروءة أن يدافع شر خصومه الكاشحين بذكر شيء من سقطاتهم، ولكن المروءة تأبى عليه أن يخلق لهم عيباً يقذفهم به، وهم منه براء؛ فإن الإخبار بغير الواقع يُقَوِّض صرح المروءة، ولا يبقى لها عيناً ولا أثراً (4)

22_ التسرع في نشر الأخبار قبل التثبت منها ومن جدوى نشرها:

فمن الناس من إذا سمع خبراً طار به كل مطار، وسعى في نشره وبثه بين الناس، قبل أن يتثبت من صحته ومن جدوى نشره. وهذا من الأخطاء الكبيرة التي يحصل بسببها الاختلاف والافتراق. فالعاقل اللبيب لا يتكلم إلا إذا تثبت من صحة كلامه، فإذا ثبت لديه صحة الكلام نظر في جدوى نشره؛ فإن كان في نشره حفز للخير واجتماع وألفة_ نشره وأظهره، وإن كان الأمر بخلاف ذلك كتم الأمر وستره.

(1) انظر رسائل الإصلاح 211/2.

(1) عيون الأخبار 14/2.

(2) ديوان الشافعي، ص 56 تحقيق الزعبي.

(3) انظر رسائل الإصلاح 211/1_212.

ولقد ورد النهي أن يحدث المرء بكل ما سمع.
قال النبي "كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع". (1)

23_ الكذب:

فما أكثر الكذب في مجالس الناس ومنتدياتهم، وما أقل الصدق بينهم في معاملاتهم وعلاقاتهم.

فمن الناس من قد ألف الكذب، ومرد عليه، فلا يخجل من نسج الأباطيل، ولا يأنف من اختلاق الأقاويل، لا تردعه تقوى، ولا يزيه دين أو مروءة.

فإذا حضر مجلساً أطلق لسانه بالكذب، فتراه يأتي بالغرائب، ويغرب في العجائب، ويسوق مالا يخطر على بال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال؛ كل ذلك لأجل أن يُستظرف ظلّه، ويُستظرف حديثه، ويرغب في مجلسه.

بل ربما ادّعى الفضل، وتشدق بكثرة الأعمال، والبر والإحسان إلى الناس مع أنه عاطل من ذلك كله، فلا فضل لديه، ولا خير يصدر منه، وإنما قال ذلك ادعاءً وتظاهراً، ومجارةً لأهل الفضل.

وغير خاف أن الكذب عمل مردول، وصفة ذميمة؛ فهو خصلة من خصال النفاق، وشعبة من شعب الكفر، وهو سبب لنزع الثقة من الكاذب، والنظر إليه بعين الخيانة، وهو سبب لدخول النار، وحرمان الجنة.

قال عليه الصلاة والسلام: =وياكم والكذب، فإن الكذب يهي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً.= (2)

ثم إنه دليل على ضعة النفس، وحقارة الشأن، وسقوط الهمة.
قيل في ذم الكذب:

وما شيء إذا فكرت فيه بأذهب للمروءة والجمال

(4) رواه مسلم (5) عن أبي هريرة.
(2) رواه البخاري 95/7 ومسلم (2607) عن ابن مسعود.

من الكذب الذي لا خير فيه وأبعد بالبهاء من الرجال(1)
وقيل في ذم الكذوب: = ليس لكذوب مروءة، ولا لضجور
رياسة+. (2)

24_ سماع كلام الناس بعضهم ببعض وقبول ذلك دون تمحيص أو تثبت:

فكما أن هناك من يكذب ويتعمد الكذب، وهناك من يتسرع في نشر الأخبار قبل التثبت منها ومن جدوى نشرها فهناك من يخطئ فيقبل ما ينقل إليه على علائته، دونما تمحيص أو تثبت، ثم يبني على ذلك مواقف عملية، فيصدر لأجله أحكاماً، ويعقد عليه ولاءً وبراءً. مع أنه لو مَحَّصَ الخبر، وكشف جَلِيَّةَ الأمرِ لربما استبان له أن الصواب بجانب لما بلغه، أو أن الأمر زِيدَ فيه ونُقِصَ، وعُيِّرَ عن وجهته.

فكم جر ذلك الأمر من ويلات، وكم أفسد من مودات، وكم أغرى من عداوات.

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي×: =من الغلط الفاحش الخطر قبول قول الناس بعضهم ببعض، ثم يبني عليه السامع حباً وبغضاً، ومدحاً وذمماً.

فكم حصل بهذا الغلط من أمور صار عاقبتها الندامة، وكم أشاع الناس عن الناس أموراً لا حقائق لها بالكلية، أولها بعض الحقيقة فنُمِّيت بالكذب والزور، وخصوصاً ممن عُرفوا بعدم المبالاة بالنقل، أو عُرف عنهم الهوى.

فالواجب على العاقل التثبت والتحرز، وبهذا يعرف دين المرء ورزاقته وعقله+. (3)

25_ رفع الصوت:

(1) أدب الدنيا والدين ص261.

(2) المحاسن والمساوي ص443.

(3) الرياض الناضرة ص209.

فهناك من إذا أراد التحدث مع غيره بالغ في رفع صوته من غير حاجة أو داع إلى ذلك.
وهذا مما ينافي أدب الحديث.

قال تعالى: [واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير] (لقمان: 19).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: [واغضض من صوتك] : = أي لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال: [إن أنكر الأصوات لصوت الحمير].

وقال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير. أي غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه، ورفعه، وهو مع هذا بغيض إلى الله.

وهذا التشبيه بالحمير يقتضي تحريمه، وذمه غاية الذم. (1)
وقال ابن سعدي في تفسير الآية السابقة [واغضض من صوتك] : = أدباً مع الناس، ومع الله، [إن أنكر الأصوات] أي أفضعها وأبشعها، [لصوت الحمير] فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة لما اختص الحمار بذلك، الذي علمته خسته وبلادته. (2)

26_ الغلظة في الخطاب:

فتجد من الناس من هو غليظ القلب، ذو فظاظة، وكزازة، فإذا خاطب الناس أغلظ لهم في القول، وجابههم بالعنف، وواجههم بالشدة. وتجد من الناس من يذهب في الإنكار على من يراه مبطلاً مذهب الفظاظة في القول، فيرميه باللعن والشتائم.

مما يبذر الشقاق الذي نهينا عنه، بل ربما حمل المبطل على التعصب لرأيه، وقبض عليه باليمين وبالشمال. وهذا السلوك لا ينبغي؛ وذلك بسبب ما يفضي إليه من شر، وعداوة، ومباغضة.

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 430/3.

(2) تيسير الكريم الرحمن 160/6.

فالناس يعرفون أن طريقة السباب إنما يسلكها العاجز عن إقامة الحجج الدامغة، ولهذا ترى المقال الذي يحزر في سعة صدر وأدب مع المخالف يجد من القبول وشد الأثر في النفس ما لا يجده المقال الذي يخالط السفه والحماسة.

فالكلام الطيب العفُّ اللين يجمل مع الأصدقاء والأعداء جميعاً، وله ثماره الحلوة، وظلاله الوارفة.

فأما مع الأصدقاء فهو يحفظ مودتهم، ويستديم صداقتهم، ويمنع كيد الشيطان أن يوهي حبالهم، ويفسد ذات بينهم؛ فالشيطان متربص ببني آدم، يريد أن يوقع بينهم العداوة، والبغضاء، وأن يجعل من النزاع الحقيق عراكاً دامياً.

ولن يسد الطريق أمامه كالقول الجميل.

وأما حسن الكلام مع الأعداء فهو يطفى نار الخصومة، ويكسر حدة العداوة، أو هو على الأقل يوقف تطور الشر، واستتار الشر. (1)
فيا لله كم للكلمة الطيبة من أثر في النفس، وكم لها من وقع عظيم في القلب، فكم من مودة استجلبت بها، وكم من عداوة مغرأة وئدت بسببها.

قال تعالى: [وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً] (الإسراء: 53).

قال ابن كثير x في تفسير هذه الآية: = يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله "أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الحسن، والكلمة الطيبة؛ فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر، والمخاصمة، والمقاتلة؛ فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينه+ (2)

وقال تعالى: [وقولوا للناس حسناً] (البقرة: 83)

(1) انظر خلق المسلم ص80، والدعوة إلى الإصلاح لمحمد الخضر حسين ص54.

(2) تفسير القرآن العظيم 45/3.

قال ابن سعدي في تفسير هذه الآية: =ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب.

ولما كان الإنسان لايسع الناس بماله أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول؛ فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح حتى للكفار+. (1)

وإذا كان لين الكلام يجمل مع كل أحد فَلَآنُ يجمل مع من له حق، أو جاه، أو رياسة من باب أولى؛ فمخاطبة هؤلاء باللين أمر مطلوب شرعاً، وعقلاً، وفطرةً، وهكذا كان النبي " يخاطب رؤساء العشائر والقبائل. (2)

قال تعالى لموسى عليه السلام عندما بعثه إلى فرعون: [اذهب إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى] (طه: 44، 23)

وقال عز وجل في الآية الأخرى: [اذهب إلى فرعون إنه طغى، فقل هل لك أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى] (النازعات: 17_19)

قال ابن القيم: =وتأمل لامثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون: [هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى] فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لامخرج الأمر، وقال: [إلى أن تزكى] ولم يقل: إلى أن أزكيك، فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره؛ لما فيه من البركة، والخير، والنماء.

ثم قال: [وأهديك إلى ربك] أكون كالدليل بين يديك، والذي يسير أمامك.

وقال: [إلى ربك] استدعاءً لإيمانه بربه الذي خلقه، وورقه ورباه بنعمه صغيراً وكبيراً+. (3)

(1) تيسير الكريم الرحمن 73/1.

(2) انظر بدائع الفوائد لابن القيم 132/3.

(3) بدائع الفوائد 133_132/3.

ولولا أن هذه الكلمات النيرات المباركات الطيبات التي تأخذ باللب، وتنفذ إلى شغاف القلب لولا أنها وجدت قلباً قاسياً، عاسياً، مارداً على الكفر والطغيان_ لأثرت به، وقادته إلى الهدى والرشاد.

وكذلك قول إبراهيم الخليل لأبيه: [يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً، يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً] (مريم: 42_45)

قال ابن القيم * معلقاً على هذه الآيات: =فابتدأ خطابه بذكر أبوتِهِ الدالة على توقيره، ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال: [لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً] ولم يقل: ما لا تعبد، ثم قال: [يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك] فلم يقل: إنك جاهل لا علم عندك بل عدل عن هذه العبارة إلى اللفظ عبارة تدل على هذا المعنى فقال: [جاءني من العلم ما لم يأتك].

ثم قال: [يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً] فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه.

وقال: =يَمَسُّكَ+ فذكر لفظ المس الذي هو اللفظ من غيره، ثم نكَّر العذاب، ثم ذكر الرحمن، ولم يقل الجبار، ولا القهار، فأى خطاب اللفظ وألين من هذا؟!+ (1)

وبعد أن تبين لنا ما للكلام اللين من فضل وأثر_ لِقَائِلٍ أن يقول: هل اللين هو الأسلوب الذي ينبغي سلوكه مع كل أحد، ولا يُعَدَّلُ عنه إلى غيره؟.

والجواب أن يقال: نعم هذا هو الأصل في الكلام حتى مع المخالفين كما قال تعالى_ [ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن] (العنكبوت: 46).

(1) بدائع الفوائد 133/3.

ولكن قد يعدل عنه إلى غيره حسب ما تقتضيه الحكمة ومقامات الأحوال.

مثال ذلك أن يجور علينا أثيم، فيتعدى حدوده، ويلجّ في عتوه ونفوره، ويتبجح في نفث سمومه وبث شبهاته.

فمثل هذا لا ينفج مع اللين، بل يتعين والحالة هذه أن يكبح جماحه، وأن يرد عدوانه؛ ولهذا قال تعالى في تمام الآية السابقة في شأن مجادلة أهل الكتاب: [وإلا الذين ظلموا منهم] (العنكبوت: 46).

ولهذا كان موسى عليه السلام متلطفاً مع فرعون غاية التلطف في بداية الأمر كما مر قريباً وعندما رأى موسى من فرعون العناد، والاستكبار، ومحاولة الصد عن الحق بعد أن اتضح له الدليل، واستبان له السبيل أغلظ له في الخطاب كما في قوله تعالى [وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً] (الإسراء: 102).

فأين هذا الخطاب من الخطاب الأول؟

وفي نهاية المطاف، وبعد أن أيس من فرعون دعا عليه بتلك الدعوات العظيمة، التي كانت سبباً في هلاك فرعون ودماره.

[وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، قال قد أجيببت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون] (يونس: 88_89)

27_ الشدة في العتاب:

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَدُّ فِي عِتَابِهِ إِخْوَانَهُ عِنْدَ أَدْنَى هَفْوَةٍ أَوْ زَلَّةٍ، إِمَّا لِجِدَّةٍ فِي طَبْعِهِ، وَإِمَّا لِظَنِّهِ أَنْ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَسَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.

فَإِذَا قَصَرَ أَحَدٌ مِنْ إِخْوَانِهِ فِي حَقِّهِ، أَوْ رُبَّمَا أَسَاءَ إِلَيْهِ إِسَاءَةً يَسِيرَةً عَاتَبَهُ بِشِدَّةٍ وَغَلْظَةٍ.

وربما تأخر عليه ضيفه عن الموعد المحدد لِعُذْرٍ أَوْ نَحْوِهِ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَعْذِرَهُ وَيَقْضِيَهُ حَقَّ التَّكْرِمَةِ تَجَدَّهَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ فِي الْعِتَابِ، وَيَمْطُرُ عَلَيْهِ وَابِلًا مِنَ اللَّوْمِ وَالتَّقْرِيعِ.

فالشدة في العتاب، وقلة التغاضي عما يصدر من الأخطاء مما يسبب النفور ممن يتصف به، ومما يوجب الرهبة منه، والرغبة عن مجالسته.

فَدَعَ الْعِتَابَ فَرُبَّ شَرِّ رِ هَا جَ أَوَّلُهُ الْعِتَابُ (1)

فالعاقل اللبيب لا يعاتب إخوانه عند كل صغيرة وكبيرة، بل يلتمس لهم المعاذير، ويحملهم على أحسن المحامل.

ثم إن كان هناك ما يستوجب العتاب عتاباً ليناً رقيقاً. ثم ما أحسن المرء أن يتغاضى ويتغافل؛ فالتغاضي والتغافل من أخلاق الأكابر والعظماء؛ فهو دليل على سمو النفس، وأريحيتها، وشفافيتها، وهو مما يرفع المنزلة، ويعلي المكانة. ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي.

قال ابن حبان x: = من لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء عما يأتون من المكروه، وترك التوقع لما يأتون من المحبوب كان إلى تكدير عيشه أقرب من أن ينال منهم الوداد وترك الشحناء. (2)

وقال ابن الأثير x عندما تحدث في تاريخه عن صلاح الدين الأيوبي: = وكان x حليماً حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره، ولا يعلمه، ولا يتغير عليه.

وبلغني أنه كان جالساً وعنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضاً بسرmoz (3) فأخطأته، ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته، ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه؛ ليتغافل عنها. (4) وقال أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ÷:

(1) عيون الأخبار 29/3.

(2) روضة العقلاء ص 72.

(3) سرmoz: لا أدري أي لفظة أعجمية؟ أم مصحفة وأصلها قشر Moz؟ لا أدري.

(4) الكامل في التاريخ لابن الأثير 225/9.

أَغْمِضْ عَيْنِي عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَإِنِّي عَلَى تَرْكِ الْعَمُوضِ قَدِيرٌ
 وَمَا مِنْ عَمِيٍّ أَغْضِي وَلَكِنْ تَعَامِي وَأَغْضِي الْمَرْءَ وَهُوَ
 وَأَسْكُتُ عَنْ أَشْيَاءَ لَوْ شِئْتُ وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْمَقَالِ أَمِيرٌ
 أَصْبِرُ نَفْسِي بِاجْتِهَادِي وَطَاقَتِي وَإِنِّي بِأَخْلَاقِ الْجَمِيعِ خَبِيرٌ (1)

وَإِذَا كَانَ التَّغَاضِي وَالتَّغَافُلُ مِنْ أَفْضَلِ خِصَالِ الْحَمْدِ فَإِنْ أَحَقَّ
 النَّاسُ بِأَنْ تَغْفِرَ زَلَاتِهِمْ، وَتَتَغَاضَى عَنْ هَفْوَاتِهِمْ، وَتَتَجَنَّبَ كَثْرَةَ لَوْمَتِهِمْ
 وَتَعْنِفَهُمْ رِجَالٌ عَرَفَتْ عَنْهُمْ الْمُوَدَّةَ، وَلَمْ يَقُمْ لَدَيْكَ شَاهِدٌ عَلَى أَنَّهُمْ
 صَرَفُوا قُلُوبَهُمْ عَنْهَا.

فَلَوْ أَخَذْتَ تُعَيِّفُ مِنْ إِخْوَانِكَ كُلِّ مَنْ صَدَرَتْ مِنْهُ هَفْوَةٌ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ
 تَفْقَدَهُمْ جَمِيعاً، وَلَمْ يَبْقَ لَكَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ صَدِيقٌ غَيْرَ نَفْسِكَ الَّتِي
 بَيْنَ جَنْبَيْكَ.

وَالْحَاصِلُ أَنْ مَا يَصْدُرُ مِنَ الصَّدِيقِ إِنْ كَانَ مِنْ قَبِيلِ الْعَثْرَةِ الَّتِي تَقَعُ
 فِي حَالِ غَفْلَةٍ، أَوْ كَانَ خَطَأً فِي اجْتِهَادِ الرَّأْيِ فَذَلِكَ مَوْضِعُ الصَّفْحِ
 وَالتَّجَاوُزِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي نَقْضِ الصَّدَاقَةِ أَثَرٌ كَثِيرٌ أَوْ قَلِيلٌ.
 قَالَ أَحَدُهُمْ:

لَا يُزْهِدَنَّكَ مِنْ أَخٍ لَكَ أَنْ تَرَاهُ زَلَّ زَلَّةً (2)

وَقَالَ الْآخَرُ:

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعٍ

وَقَالَ الْآخَرُ:

فَإِنْ يَكُنِ الْفَعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِداً فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَرْنَ أَلُوفُ

وَأَمَّا إِنْ كَانَ عَنْ زَهْدٍ فِي الصَّحْبَةِ، أَوْ انْصِرَافاً عَنِ الصَّدَاقَةِ فَلكَ
 أَنْ تَزْهَدَ بِهِ، وَتَقْطَعَ النَّظَرَ عَنْ صَدَاقَتِهِ.

(1) ديوان الإمام علي ص 106.

(2) روضة العقلاء ص 45.

وهذا موضع الاستشهاد بمثل قول الكميت:
وما أنا بالنكس الدنيء ولا إذا صدّ عني ذو المودة يقربُ
ولكنه إن دام دُمْتُ وإن يكن له مذهب عني فلي فيه مذهبُ
ألا إن خير الودِّ ودُّ تطوعت له النفس لا ودُّ أتى وهو
والفرق بين عثرة قد تصدر من ذي صداقة وبين جفاء لا يكون إلا
من زاهد في الصداقة_ يرجع فيه الرجل إلى الدلائل التي لا يبقى فيها
ريب.

أما مجرد الظنون فلا يُلتفت إليها، ولا يُعوّل عليها.
والتفريط بجانب الصديق ليس بالأمر الهين؛ فلا ينبغي الإقدام عليه
دون أن تقوم على قصده لقطع المودة بينة واضحة؛ ذلك أن المرء
لا يخلو وهو معرض للغفلة والخطأ_ أن يُخلّ بشيء من واجبات
الصداقة.

فإن كنت على ثقة من صفاء مودة صديقك_ أقمت له من نفسك
عذراً، وسرت في معاملته على أحسن ماتقتضيه الصداقة.
فإذا حام في قلبك شبهة أن يكون هذا الإخلال ناشئاً عن التهاون
بحق الصداقة_ فهذا موضع العتاب؛ فالعتاب يستدعي جواباً، فإن
اشتمل الجواب على عذر أو اعتراف بالتقصير فاقبل العذر، وقابل
التقصير بصفاء خاطر، وسماحة نفس.

وعلى هذا الوجه يحمل قول الشاعر:

أعاتب ذا المودة من صديق إذا مارابني منه اغترابُ
إذا ذهب العتابُ فليس ودُّ ويبقى الودُّ ما بقي العتاب(1)

ومما يدلّك على أن صداقة صاحبك قد نبنت في صدرٍ سليم أن يجد
في نفسه ما يدعوهُ إلى عتابك، حتى إذا لقيته بقلبك النقي، وجبينك
الطلق_ ذهب كل ما في نفسه، ولم يجد للعتاب داعياً، كما قال أحدهم:

(1) بهجة المجالس 4/738.

أزور محمداً وإذا التقينا تكلمت الضمائر في الصدور
 فأرجع لم أئمه ولم يلمني وقد رضي الضمير عن
 فإن أكثر صاحبك من الإجحاف في حق الصداقة، ولم تجد له في
 هذا الإجحاف الكثير عذراً يزيل من نفسك الارتياح في صدق
 مودته_ فذلك موضع قول القائل:
 أَفْلِلَ عِتَابَ مَنْ اسْتَرَبَّتْ بُوْدَهُ لَيْسَتْ تَنَالُ مَوْدَةَ بَعْتَابِ(2)

28_ التقصير في أدب الهاتف: (3)

فالهاتف في هذا العصر يعد أهم وسائل الاتصال الشفوية وأسرعها؛
 فهو يعطي המתهاتفين فرصة الإيضاح بلا عناء، ولا مكاتبة؛ فكم في
 ذلك من توفير للجهد، والوقت، والمال، وتلبية المطلوب بأقصر وقت،
 ورفع مشقة الذهاب والإياب، بل والسفر لأمرٍ تقضى بواسطة
 الهاتف؛ فله الحمد والمنة.
 هذا وللهاتف آداب مطلوبة من الطرفين: المتصل والمتصل عليه،
 وإذا كان بعضها من جانب المتصل أكد، لأنه هو الطالب، والطالب
 قريب من السائل، ففي موقفه ضعف، فليجبره بحسن الأدب.
 وإن مما يلاحظ أن هناك تقصيراً كبيراً في أدب الهاتف، ومن
 مظاهر ذلك مايلي:

أ_ قلة المبالاة بصحة الرقم المطلوب:

فمن الناس من لا يبالي بصحة الرقم الذي طلبه، مما يوقعه في
 الغلط، فيتسبب في إيقاظ نائم، أو إزعاج مريض، أو إشغال الآخرين،
 أو نحو ذلك.

(1) عيون الأخبار 26/3.

(2) انظر رسائل الإصلاح، 15/2_16 ففيه تفصيل جميل لهذا الأمر، وانظر سوء
 الخلق مظاهره_ أسبابه_ علاجه، للكاتب ص104_106.

(3) الحديث في هذه الفقرة أكثره مستفاد من أدب الهاتف للعلامة د. بكر أبو زيد _
 حفظه الله.

ومن هنا كان واجباً على المتصلِّ ألا يتصل إلا بعد التأكد من معرفة الرقم، إما أن يكون مكتوباً أمامه، أو أن يكون متأكداً من حفظه في ذاكرته.

ثم إذا وضع إصبعه على الهاتف فليُتْبِعْه بصره، فإن حصل خطأ فليتلطف بالاعتذار.

ب_ شدة الغضب حال الاتصال الخطأ:

فالبعض يشتد غضبه، ويرتفع صوته، ويبادر بالدعاء إذا اتصل عليه متصل فأخطأ الرقم.

وهذا لا يحسن بالمرء؛ فيا أيها المتصلِّ عليه، لا تنفعل حينما يحصل شيء من ذلك، بل تأنّ، ولا تعجل باللوم والغضب، بل تلطف بالقول؛ فإن كان المتصل غلطاً حقيقة فهو غير آثم، وقد أدخلت إليه السرور بلطفك، ولا سبيل لك عليه شرعاً.

وإن كان متعمداً فقد أحسنت في تلطفك، ولك الأجر وعليه الوزر.

ج_ قلة المراعاة لوقت الاتصال:

فإذا كان لك حاجة في الاتصال فاذكر أن للناس أشغالاً وحاجاتٍ، ولهم أوقات طعام، وأوقات نوم وراحة.

فعليك تحري الوقت المناسب، مراعيّاً ظروف العمل، وارتباطات أخيك، وما عليه من واجبات ومسؤوليات، ومراعيّاً مالدي أهل البيت من أوقات نوم، وراحة، وطعام.

ثم إذا اعتذر منك إلى وقت آخر فاقبل ذلك بانسراح صدر.

وإذا قيل انتظر، فانتظر وأنت مُنَعَّم البال، غير مُتَبَرِّم.

وحكم مراعاة الاتصال هذا إنما هو في غير الأماكن المفتوحة على مدار ساعات الليل والنهار، كالفنادق، ودور التأجير للمسافرين، ومن في حكمهم.

د_ الإطالة بالمكالمة بلا داع:

والمقياس في ذلك أن لكلِّ مقام مقالاً، ولكل مقال مقداراً؛ فاحذر الثرثرة، والإملال، والإطالة، والإثقال.

هـ_ قلة الاعتداد بالسلام من المتصلِّ بدايةً ونهايةً:

فمن الناس من لا يأبه بالسلام حال الاتصال لا في البداية ولا النهاية، ومنهم من يستبدل تحية الإسلام_السلام عليكم_بغيرها من التحيات الأخرى، كأن يقول (صباح الخير، أو صباح النور) أو أن يقول (ألو) أو (كيف الحال)أو نحوها.

وفي هذا ابتعاد عن السنّة، واستبدال للذي أدنى بالذي هو خير.

و_سكوت المتّصل إذا رفعت السّماعَة:

فمن المتّصلين من يسكت إذا رفعت السّماعَة حتى يتكلم المتّصل عليه، وفي هذا إخلال للأدب من عدة جهات:

منها: مخالفة السنة في بدء المستأذن والقادم بالسلام.

ومنها: أن المتصل هو الطالب فعليه المبادرة بالسلام.

ومنها: أن بعض من قلّ أدبهم يقصد الفحص والتعرّف هل أنت موجود أو لا؟

فإذا رفعت السّماعَة وقلت: نعم، عرف المراد فوضعها.

ز_التعمية على المتّصل عليه:

وذلك بأن لا يذكر المتّصل اسمه حال الاتصال، بحيث يعدل عن ذلك فإذا سئل عن اسمه قال: أنا، أو أنا صديقه، أو أنا جاره، أو نحو ذلك.

وماذا عليك أيها المتّصل أن تقول أنا فلان الفلاني، أو بما يُعرّف شخصك عنده؟

ح_خضوع المرأة بالقول حال المهاتفة، واسترسالها بالحديث مع الرجال:

قال الله تعالى: [فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً] (الأحزاب: 32).

هذا في حق نساء النبي " اللاتي هن أمهات المؤمنين_رضي الله عنهن_واللاتي لا يطمع فيهن طامع، وهن في عهد النبوة.

فكيف بمن سواهن؟ إنّ نهيهن عن الخضوع من باب أولى، فاتقن الله يانساء المؤمنين، وقلن قولاً معروفاً في الخير، أي بلا ترخيم ولا تمطيط، فلا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

وإذا كان يحرم على المرأة ذلك فإنه يحرم على الرجل سماع صوتها بتلذذ، ولو كان صوتها بقراءة القرآن. وإذا شعرت المرأة بذلك حرم عليها الاستمرار في الكلام معه؛ لما يدعو إليه من الفتنة.

ط_ إزعاج الناس بالأخبار الكاذبة:

فمن الناس من نضب ماء الحياء في وجهه، وقلَّ وقارُ الله في قلبه، فلا يبالي بما يقول، ولا يأنف من ترويع المسلمين. فتجد هذا الصفيق يتصل ببعض البيوت ويقول مثلاً: لقد حصل على ابنكم حادث في السيارة فمات، أو هو الآن في حالة خطر أو نحو ذلك.

فما المتوقع أن تكون النتيجة لهذه الكذبة خصوصاً إذا سمع هذا الخبر أم أو زوجة؟ ألا فليتق الله من يقوم بذلك، وليحذر عقوبة الله العاجلة تنزل بساحته.

ي_ تسجيل صوت المتكلم دون إذنه وعلمه:

فهذا ضرب من ضروب الخيانة، وإذا نشرت هذه المكالمات للآخرين فهي زيادة في التخون وهتك الأمانة.

ك_ المعاكسات الهاتفية:

فمن السفلة من يتصل على البيوت مستغلاً غيبة الراعي؛ ليتخذها فرصة عله يجد من يستدرجه إلى سفالته.

وهذا نوع من الخلوة أو سبيل إليها.

ومنهم من يستدرج بريئة في الكلام ثم يسجل صوتها ثم يتخذ ذلك ذريعةً لتهديدها وإسماع أقاربها صوتها إن لم تستجب لمطالبه.

فهذه الأعمال وأمثالها حرام، وإثم، وجناح، وفاعلها حري بالعقوبة، فيخشى عليه أن تنزل به عقوبة تلوث وجه كرامته.

فعلى رب الدار أن يبذل الأسباب، ويوفر الضمانات، لحماية محارمه من العابثين والسفهاء.

ومن هذه الأسباب أن يكون الهاتف في مكانه لا تغاب عنه الرقابة البيئية، مع منع تعدد أجهزة الهاتف، خاصة في غرف البنات والمراهقين، وأن ينظم الراعي مع أهل بيته من يتولى الرد على الهاتف، وآداب الرد، وعدم الاسترسال مع المتصل، وهكذا مما لا يخفى على محبي العفة والكرامة.

29_التقصير في أدب الحوار:

فالناس كثيراً مما يحتاجون إلى الحوار؛ ليصلوا من خلاله إلى نتيجة ما، سواء في المسائل العلمية، أو غيرها من الأمور التي تتفاوت في فهمها مدارك العقول.

والحوار المنهجي مفيد في إيصال الفكرة للآخرين، ومفيد في تدريب المحاور نفسه؛ إذ يرتقي بطريقته في التفكير والأداء، ويُدرّبه على كبح جماحه، وضبط نفسه ولسانه، ويقوي لديه ملكة المحاكمة والتفكير المتزن، مما يجعله مقبولاً بدرجة أكبر.⁽¹⁾ ثم إن الناس يصلون من خلال الحوار المنضبط إلى قنوات معينة، وتصورات صحيحة.

كما أنه سبب لاتساع آفاقهم، وتفتح مداركهم؛ ولهذا عني القرآن به عناية بالغة؛ فهو الطريق الأمثل للإقناع الذي ينبع من الأعماق. إلا أن المتأمل في حوارات الناس يلحظ تقصيراً كبيراً في هذا الجانب.

وقبل الدخول في ذكر جوانب التقصير في أدب الحوار_يحسن أن يُفرّق بين الحوار والجدال تفريقاً يوضح مدلول كل منهما. فهما يلتقيان في أنهما حديث أو مناقشة بين طرفين، لكنهما يفترقان بعد ذلك.

أما الجدال فو الأغلب اللدُّ في الخصومة وما يتصل بذلك، ولكن في إطار التخاصم بالكلام؛ فالجدال، والمجادلة، والجدل كل ذلك ينحو منحى الخصومة ولو بمعنى العناد بالرأي، والتعصب له.

(1) انظر: في أصول الحوار إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي ص7.

هذا وستتضح معالمه في الفقرة التالية. وأما الحوار والمحاورة فهو مراجعة الحديث، ومداولة الكلام بين طرفين، ينتقل من الأول إلى الثاني، ثم يعود إلى الأول وهكذا، دون أن يكون بين هذين الطرفين ما يدل بالضرورة على وجوب الخصومة.

وأما الآن فإلى ذكر بعض الجوانب التي يُقصر فيها أدب الحوار.

أ_ قلة الإخلاص:

وذلك بأن يدخل المرء في حوار لا يريد به وجه الله، ولا الوصول من خلاله إلى معرفة الحق. وإنما يريد أن يظهر براعته، ويبرز مقدرته، ويبرز أقرانه، وينتزع إعجاب الحاضرين.

قال الرافعي^x: =متى وقع الخلاف بين اثنين، وكانت النية صادقة مخلصة لم يكن اختلافهما إلا من تنوع الرأي، وانتهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرأيين، مامن ذلك بُدُّ+. (2)

وعن أحمد بن خالد الخلال قال: =سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول: ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطئ.

وعن الحسين الكرابيسي يقول: سمعت الشافعي يقول: ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يُوقَّع، ويُسدَّد، ويُعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ.

وما ناظرت أحداً إلا ولم أبالِ بيَّن الله الحق على لساني أو لسانه+. (3)

ب_ الدخول في النيات:

وذلك بالصاق التهم بالمُحاور، وحمل كلامه على أسوأ المحامل، وأخذه بلازم قوله دون أن يتلزمه، أو أن يقول له: أنت لم تُرد بما قلت وجه الله، أو نحو ذلك.

(2) وحي القلم للرافعي 315/2.

(3) صفة الصفوة لابن الجوزي 167/2.

فهذا مما يفسد جوَّ الحوار، ويفقده مصداقيته وفائدته، ويخرجه إلى المهاترة والمسابَّة.

فيجمل بالمرء أن يحسن الظن بمن يحاوره، وأن لا يدخل في نيته، وأن يحمل كلامه على أحسن المحامل ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

ج_ الغضب:

فكثير من المحاورين إذا أبدا وجهة نظر قابله للأخذ والرد ثم عارضه صاحبه ولم يوافقها عليها غضب لذلك أشد الغضب. وهذا لا يحسن بالمحاور، بل يحسن به أن يضبط نفسه، وألا يحمل الناس على ما يراه صواباً.

ج_ الهجر والصرم:

فكثيراً ما تفسد ذاتُ البين بين المتحاورين عند الاختلاف في وجهات النظر.

حتى إن ذلك ليحدثُ بين الزملاء والأصدقاء؛ فلربما أودى الخلاف بالصدقة، وذهب بالموودة والمحبة.

إن المحاورة والمناقشة تؤثر في غالب الأحيان على القلوب، وتكدر الخواطر؛ فتذكر ذلك جيداً وأنت تحاور، وتذكر قول الشاعر:
واختلافُ الرأي لايفُ سيدُ للودِّ قضيَّة

وقول الآخر:

في الرأي تضطغن العقول وليس تضطغن الصدور

فليست المشكلة أن نختلف، وإنما هي أن لانعرف كيف نختلف، وليس الحل بالأ نختلف أبداً؛ فهذا غير ممكن ولا متصور، وإنما هو أن لانصعد الخلاف، وألا نسعى إلى إذكائه، وأن نعرف كيف نختلف كما نعرف كيف نتفق، كما كان الصحابة رضي الله عنهم فهم خير الناس حال الوفاق، وحال الخلاف.

فمع أن الخلاف وقع بينهم في العديد من المسائل إلا أن قلوبهم كانت متوادة، متحاببة، متقاربة، متألفة.

بل لقد كانوا مثلاً يحتذى، ونهجاً يقتفى حتى في حال الفتنة والقتال؛ فبرغم ما حصل بينهم من قتال وفتنة إلا أن منار العدل والتقوى كان قائماً فيهم؛ فلم يُكفّر بعضهم بعضاً، ولم يُبدّع بعضهم بعضاً، بل كانوا يأخذون العلم من بعض، ويلتمسون المعاذير لبعض، بل كانوا يثنون على بعض ويترحمون على بعض.

هـ_ إغفال الجوانب العاطفية:

فالجوانب العاطفية لها دور كبير في المحاورة وغيرها، فكثير من المحاورين يغفل هذا الجانب ولا يأبه به. وهذا خلل يحسن بالمحاور أن يتجنبه؛ ففي بعض الأحيان قد لا ينفع المنطق والبرهان، وإنما يجدي التودد والإحسان. فحينئذ ألق عصا المنطق والبيان، واحمل راية الشفقة والحنان؛ حينها تخطب الودّ، وتستولي على الأمد. فكثيراً ما تبدأ المناقشة أو المحاورة، وروح العداوة تسيطر على أحد الطرفين.

فإذا ما دفع الآخر بالتي هي أحسن انقلبت العداوة إلى مودة، والبغضة والوحشة إلى محبة وألفة (4). فحري بالمحاور أن يكسب صاحبه، وأن يخطب ودّه في كل مناسبة تسنح له؛ فيثني عليه إذا أجاد، ويسلم له إذا أصاب، ويرده إلى الصواب بلطف إذا هو أخطأ، ويذكر مزاياه في حضوره وغيبته، ويبادر بالهدية والزيارة إذا أحسن نفرة منه. وهذه الأمور ليس بالسهل تحصيلها، ولا ليس بمقدور كل إنسان ينالها، بل تحتاج إلى توفيق، وتدريب، وصبر، وشجاعة [وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم] (فصلت: 35).

و_ قلة الإنصاف:

(4) انظر في أصول الحوار ص 75.

فقلة الإنصاف خصلة قبيحة، تنساق بصاحبها إلى دركات سحيقة، فتقوده إلى الظلم، والكبر، والتزيد، والاعتساف، وتنجرُّ به إلى الصرم، والخجر، والقطيعة.

قال الحكيم العربي:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعةً بين الرجال وإن كانوا ذوي

ثم إن قلة الإنصاف تسقط الاحترام من العيون والقلوب، وتحول بين الرجل وبين أن يزداد علماً وفضلاً، كما أنها تخذل العلم، وتطمس شيئاً من معالمه، كما أنها تفسد فيه فساداً عريضاً.

فإذا لم ينصفك محاورك، فَرَدَّ عليك الحقَّ بالشمال وباليمين، أو جدد جانباً من فضلك، أو تعامى عما معك من الحق وهو يراه رأي العين فلا تُسايِرُهُ في ذلك، ولا تكن قلة إنصافه حاملةً لك على أن تقابله بالعناد، فتردَّ عليه حقاً، أو تجدد له فضلاً، فاحترس من أن تسري لك من محاورك عدوى هذا الخلق الممقوت، فيلج في نفسك، وينشط له لسانك، وأنت تحسبه من قبيل محاربة الخصوم بمثل سلاحهم.

كلا، لا يحارب الرجل خصومه بمثل اعتصامه بالفضيلة، ولا سيما فضيلة كفضيلة الإنصاف؛ فهي تدل على نفس مطمئنة، وأفق واسع، ونظر في العواقب بعيد.

ولئن كان الإنصاف جميلاً فهو مع الأقران أجمل وأجمل؛ ذلك أن الرجل يسهل عليه أن ينصف من هو أكبر منه سناً أكثر مما يسهل عليه أن ينصف قرينه؛ ذلك لأن أكبر عائق عن الإنصاف التحاسد. وحسد الإنسان لأقرانه أكبر وأشد من حسده للمتقدمين عليه في السن.

بل يسهل عليه أن ينصف أقرانه أكثر مما يسهل عليه أن ينصف من هو أحدث سناً منه؛ إذ يسبق إلى ظنه أن ظهور مزية لمن هو أحدث عهداً منه قد تفضي إلى أن يكون ذكْرُه أرفع.

وفضل القرين على بعض أقرانه شائع أكثر من فضل المتأخر على المتقدم، وشيوع الشيء يجعله أهون على النفس مما هو أقل شيوعاً منه.

عن عمر بن سعيد عن أمه قالت: =قدم ابن عمر مكة، فسألوه، فقال: أتجمعون لي يا أهل مكة المسائل وفيكم ابن أبي رباح يعني عطاءً+ (5)

فابن عمر ÷ كان صحابياً، وعطاء ابن أبي رباح × كان تابعياً، ومع ذلك أنصفه ابن عمر، ولم يغمطه حقه.

فينبغي للإنسان أن يتيقظ للأحوال التي تتقوى فيها داعية العناد، ويُعدّ للوقوف عند حدود الإنصاف، ومقاومة تلك الداعية ما استطاع من قوة.

كذلك لا يصعب على الرجل أن ينصف قريباً أو صديقاً، بل لا يصعب عليه أن ينصف من لآثر بطنه به قرابة، أو صداقة، ولا تبعده منه عداوة.

والإنصاف الذي قد يحتاج فيه إلى مراوضة النفس كثيراً أو قليلاً هو أن يبدي بعض أعدائه رأياً سديداً، أو يناقشة في رأي مناقشة صائبة؛ فهذا موطن تذكير النفس بأدب الإنصاف، وإنذارها ما يترتب على العناد من إثم وفساد.

ومن الإنصاف الذي يدل على الرسوخ في الفضيلة أن يتحدث الرجل عن خصمه، فينسب إليه ما يعرفه له من فضل.

أنشد في مجلس أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ÷ قول الشاعر:
فتى كان يدينه الغنى من إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر
كان الثريا عُلقتُ بجبينه وفي خده الشّعري وفي الآخر
فلما سمعها علي ÷ قال: هذا طلحة بن عبيد الله، وكان السيف ليلتئد مجرداً بينهما! (6)

(5) صفة الصفوة 2/143.

(6) انظر رسائل الإصلاح 1/38_47.

وإن مما يعين على اكتساب فضيلة الإنصاف أن يحب المرء لإخوانه ما يحب لنفسه؛ فذلك أقرب للتقوى، وأنفى للوحشة والبغضاء، وأدعى للرحمة والمودة والقربى؛ فأعدل السّير أن تقيس الناس بنفسك، فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك⁽¹⁾.
قال النبي عليه الصلاة والسلام: =لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه+⁽²⁾.

قال الخطابي:

ارض	للناس	جميعاً	مثل	ما	ترضى	لنفسك
إنما	الناس	جميعاً	كُلُّهُم	أبناء	جنسك	
فلهم	نفس	كنفسك	ولهم	حس	كجسك	⁽³⁾

ومما يعين على الإنصاف أيضاً أن يضع المرء نفسه موضع خصمه؛ فذلك مما يدعو لالتماس المعاذير، والبعد عن إساءة الظن، والحذر من مواطن الظلم والاعتساف.
قال ابن حزم^x: =من أراد الإنصاف فليتَوَّهْهُم نَفْسَهُ مَكَانَ خصمه؛ فإنه يلوح له وجهٌ تَعَسَّفِهِ+⁽⁴⁾.

ز_ التهكم بالمحاور:

وهذا مما يسلكه بعض الناس في محاوراته، فتراه يزدري مُحَاوَرَهُ، ويتهكم به، ويغضُّ من شأنه، ويحط من مرتبته.
وهذا الصنيع من آفات الحوار، وعلل المحاورين؛ فهو دليل على الكبر والغرور، ومن علامات الإعجاب بالنفس، والاستطالة على الآخرين.

(1) الأدب الصغير والأدب الكبير ص73.

(2) رواه البخاري 9/1، ومسلم (45).

(3) أقوال مأثورة ص456.

(4) الأخلاق والسير ص80.

فالتهمك بالمحاور مما ينافي أدب الحوار، فلا ينبغي للمحاور أن يلجأ إليه إلا إذا اقتضى الحال ذلك، كأن تتحدث مع طائفة باعوا نفوسهم بمتاع هذه الحياة الدنيا، واندفعوا لإغواء الأمة، والكيد لها ولشريعتهما بجميع ما يملكون من صفاقة، وعناد، وسوء طويّة.

ولعل الناس يعذرونك حين تتصدى لكف بأس هؤلاء ويجري على لسانك أو قلمك في خلال جدالهم كلمة تتهم بعقولهم، أو تزدرى آراءهم، أو تنبه على مكر انطوت عليه دعايتهم.

فإنك إن تهكمت بعقول هؤلاء، أو ازدريت آراءهم فإنما تضعها في مواضعها، وتمسّ خيلاءهم بما يخفف من غلوائها.(1)

ح_ التحدي والإفحام:

فتلك آفة يعاني منها كثير من المحاورين، فتجد كثيراً منهم يحرص كل الحرص على إفحام صاحبه، وإسكاته، وربما الإطاحة به.

وهذا الأسلوب لا ينبغي ولو كان بالحجة والبرهان؛ ذلك أنه يورث التنافر، ويهيج العداوة، ويُبغضُ صاحبه للآخرين؛ فلا تلجأ إليه؛ لأن كسب القلوب أهم من كسب المواقف.

ثم إنك قد تفحم محاورك، وتعجزه عن الجواب، لكنك لا تقنعه. وقد تسكته بقوة حجتك، ولحن منطقك ومع ذلك لا يُسلم لك؛ لأنك قد أخرجته، وملأت قلبه غيظاً وحنقاً عليك، فيرفض التسليم لك بعاطفته، وإن كان معك بعقله.

ولعل وقع التحدي يكون أشد، وجرحه أغور_ إذا كان أمام جمع من الناس، ويزداد الأمر شدة كلما ازداد الجمع.

أما إذا تلطفت معه وترفقت به فإنه سينقاد إلى الحق، وسيسلم لك ويذعن إن عاجلاً أو آجلاً.

فإذا أنهيت ما تريد قوله، وأدليت بدليلك فاترك صاحبك وإن لم يوافقك؛ فهو مع مرور الزمن، وتَحَمُّرِ الفكرة في رأسه سيقنع برأيك،

(1) انظر الدعوة إلى الإصلاح ص55.

بل ربما تبناه، ودافع عنه؛ فالوقت له قيمته، وهو جزء من علاج الأفكار والنفوس.(1)

ومع ذلك يبقى الإفحام هو الأسلوب الأمثل إذا استدعاه المقام، واقتضاه الحال، كما هو الشأن مع من يتعمى عن الحق، ويثير الشبه والأباطيل، فإفحامه مما يدحض حجته، ويكسر شوكته، ويسقط هيئته. وكذلك فعل إبراهيم الخليل عليه السلام حينما حاجه النمرود في ربه الذي آتاه الملك، فأفحمه الخليل وأسكته.

قال تعالى: [ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين] (البقرة: 258).

طـ تفخيم النفس:

فذلك مما يعاني منه كثير من المحاورين؛ فتراه يكثر من إدراج ضمير المتكلم (أنا)، أو ما يقوم مقامه كأن يقول: (في رأيي)، أو (حسب خبرتي)، أو (هذا ما توصلتُ إليه)، ونحو ذلك.

وأقبح ما في هذا أن يفخّم نفسه أكثر من ذلك، فيأتي بضمير الجمع كأن يقول: (هذا رأينا)، أو (هذا ترجيحنا)، أو (هذا ما توصلنا إليه)، أو نحو ذلك من العبارات الفجّة، التي تتم عن غرور ونقص.

فهذا كله مجلبة لتباعد الأنفس بعد تقاربها، ولتناكر الأرواح بعد تعارفها، وهو مما يفقد الحوار قيمته وفائدته؛ وذلك لما يتركه من انطباع سييء لدى السامع؛ فالإنسان بطبعه يكره من يتعالى عليه، وينزله منزلة الجاهل.

والبديل الصحيح عن ذلك أن يتحدث المرء مستعملاً الصيغ التي توحى بالتواضع، وعزو العلم لأصحابه، كأن يقول: ويبدو للدارس كذا

(1) انظر في أصول الحوار ص60 وكيف تحاور د.طارق الحبيب ص61.

وكذا، أو يقول: ولعل الصواب أن يقال كذا وكذا، ونحو ذلك من العبارات المشعرة بالتواضع، واهتضام النفس. (1)

ي_ تجاهل اسم المحاور:

كأن يقول المرء بين الفينة والأخرى لمحاوره: يا فلان بغير اسمه تجاهلاً له، أو أن يناديه بلقب يكرهه.

ومن ذلك أن يكثر من إيراد ضمير المخاطب في مخاطبة محاوره كأن يقول: أنت، أو ما يشاكله كأن يقول: قلت، أو تكلمت، أو أخطأت، أو تعجلت، أو نحو ذلك.

فهذا مما ينافي الأدب، ويثير المحاور، ويجلب الضغائن. فالأولى بالمرء أن لا يخاطب محاوره إلا باسمه مقروناً بتفخيمه وتبجيله، وإنزاله المنزلة اللائقة به، وإن كناه أو ناداه بلقب يسرّه فحسن جميل. (2)

وهذا الأدب مقتبس من مثل قوله _تعالى_: [يا أهل الكتاب] ، وقول: [يا أولي الأبصار].

ويتأكد هذا الأدب في محاورة الصغير للكبير، والمرؤوس للرئيس ونحو ذلك.

ك_ التنازل عن المبدأ الثابت:

فهناك من يحاور غيره، فيتنازل له عن مبادئه الثابتة عند أدنى شبهة تثار عليه.

وهذا من آفات الحوار، ومما يتنافى مع الحزم. وليس معنى ذلك أن يصر المرء على لجأه وعناده بعد أن يتبين له الحق، بل الحكمة والعدل أن يرجع عن رأيه وقوله إذا لاح له وجه الصواب.

وإنما المقصود أن يثبت على مبدئه، ولا يرجع عما عقد عليه قلبه إلا إذا تبين له خلاف ذلك بالبرهان الساطع، والدليل القاطع.

(1) انظر في أصول الحوار ص75.

(2) انظر كيف تحاور ص21، 28، 29_30.

قال ابن حزم^x: =الثبات الذي هو صحة العقد، والثبات الذي هو اللجاج مشتبهان اشتباهاً لا يفرق بينهما إلا عارف بكيفية الأخلاق. والفرق بينهما أن اللجاج هو ما كان على الباطل، أو ما فعله الفاعل نصراً لما نشب فيه، وقد لاح له فساد، أو لم يُلخ له صوابه ولا فساد، وهذا مذموم، وضده الإنصاف.

وأما الثبات الذي هو صحة العقد فإنما يكون على الحق، أو على ما اعتقده المرء حقاً ما لم يُلخ له باطله، وهذا محمود، وضده الاضطراب.

وإنما يلام بعض هذين لأنه ضيِّع تدبر ما ثبت عليه، وترك البحث عما التزم أحق هو أم باطل⁽¹⁾. وقال العقاد:

=العناد، والثبات على الرأي نقيضان؛ العناد إصرار بغير سبب، أو لسبب ظهر بطلانه.

والثبات إصرار على رأي يؤمن به صاحبه، ولم يظهر له ما يدعوه إلى التحول عنه⁽²⁾.

ل_الإصرار على الخطأ، والأنفة من الرجوع إلى الحق:
فكما أن من آفات الحوار تنازل المرء عن مبدئه الثابت_فكذلك من آفاته الإصرار على الخطأ والأنفة من الرجوع إلى الحق. فمن المحاورين من يصر على رأيه بعدما تبين له فساد، ويأنف من الرجوع إلى الحق بعد ما تبين له وجه الحقيقة الأبلج؛ إما خوفاً من سقوط منزلته، وإما لحسدٍ تنطوي عليه دخيلة نفسه، أو حذراً من تفوق الخصم، وحرصاً على الأفراد بخصال الحمد، أو متابعة للأصحاب، ومسايرة لمن هم على الشاكلة، أو لإرادة الإضلال، ومحاولة قتل الحق وطمس معالمه، أو غير ذلك من أسباب رد الحق، و الإصرار على الباطل.

(1) الأخلاق والسير ص57.

(2) أقوال مأثورة ص200 عن آخر كلمات العقاد ص39.

وهذه الآفة نوع من العناد = والعناد قبيح، ويشتد هذا القبح بمقدار ظهور الحجة على الرأي الذي تحاول رده على صاحبه؛ فمتى كانت الحجة أظهر كان العناد أقبح.

والإنصاف جميل، ويكون جماله أوضح وأجلى حيث يكون في حجة الرأي الصائب شيء من الخفاء، وحيث يمكنك أن تتحيز لرأيك، وتُهَيِّءَ كثيراً من الأذهان لقبوله. (1)
كذلك قد تقول قولاً تراه صواباً، وقد تعمل عملاً تحسبه حسناً، فينقده آخر بميزان العلم الصحيح، ويريك أنك قد قلت خطأ، أو عملت سيئاً.

ففي مثل هذا المقام قد تجد في نفسك كراهة للاعتراف بالخطأ في القول، أو الإساءة بالعمل.

فإن كنت على ذكر في فضيلة الرجوع للحق، وعلى بينة من قبح الإصرار على الباطل لم تلبث أن تكظم الكراهة، ولم تجد في نفسك حرجاً من أن تقول للناس: إني أخطأت في قلبي، وأسأت في عملي.

فالأكابر لا يأنفون من الاعتراف بالخطأ إذا أخطأوا، ولا يتلبنون في الرجوع إلى الحق ولو عظمت مناصبهم وعلت أقدارهم.

والراسخون في الفضيلة لا يباليون أن يكون رجوعهم عن الخطأ أمام من خالفه وحده، أو بمحضر جمع كبير. (2)

=وقد ينقل التاريخ شذرات من حوادث المنصفين لمن خالفهم في أمر، أو المعترفين لبعض خصومهم بفضيلة، فتهتز في نفوس قرائها عاطفة احترام لمن أقر بالخطأ، أو اعترف لخصمه بخصلة حمد.

وربما كان إكبارهم لمن أقر بالخطأ فوق إكبارهم لمن خالفه في الرأي فأصاب.

وربما كان إكبارهم لمن شهد لخصمه بمكرمة فوق إكبارهم للشخص المشهود له بتلك المكرمة.

(1) رسائل الإصلاح 46/1.

(2) انظر رسائل الإصلاح 45_42/1.

وسبب هذا الإكبار عظمة الإنصاف، وعزة من يأخذ نفسه بها في كل حال+. (1)

ولو أخذت هذه الخصلة حظها من النفوس لعمّ الائتلاف، ولقلّ الاختلاف.

عن الربيع بن سليمان قال: =سمعت الشافعي يقول: ما أوردتُ الحقَّ والحجة على أحد فقبلهما مني إلا هبُّته، واعتقدت مَوَدَّتَهُ، ولا كابرنى على الحق أحد، ودافع الحجة إلا سقط من عيني+. (2)

=ونقرأ في تاريخ العلامة محمد بن عبدالسلام أن ابن الصباغ اعترض عليه في أربعة عشر مسألة، فلم يدافع عن واحدة منها، بل أقر بالخطأ فيها جميعاً+. (3)

=ويقص علينا التاريخ أن في الأساتذة من يحرص على أن يرتقي تلاميذه في العلم إلى الذروة، ولا يجد في نفسه حرجاً من أن يظهر عليه أحدهم في بحث، أو محاوره.

يذكرون أن العلامة أبا عبدالله الشريف التلمساني كان يحمل كلام الطلبة على أحسن وجوهه، ويبرزه في أحسن صورته.

ويروى أن أبا عبدالله هذا كان قد تجاذب مع أستاذه أبي زيد ابن الإمام الكلام في مسألة، وطال البحث اعتراضاً وجواباً حتى ظهر أبو عبدالله على أستاذه أبي زيد، فاعترف له الأستاذ بالإصابة، وأنشد مداعباً:

أعلمه الرماية كلَّ يومٍ فلما اشتد ساعدُه رمانى+. (4)

م_قلة العلم بمادة الحوار:

فقد يحاور المرء بدون علم؛ فإن فعل ذلك عرّض نفسه للإحراج، بل ربما خذل الحق خصوصاً إذا كان الذي أمامه محاوراً بارعاً،

(1) رسائل الإصلاح 46/1.

(2) صفوة الصفوة 167/2.

(3) رسائل الإصلاح 42/1.

(4) رسائل الإصلاح 44/1.

فلربما أقنع السامعين بفكرة خاطئة، أو شككهم بفكرة صحيحة؛ فكم ضاع من حق بسبب سوء العبارة، وقلة العلم، وكم ظهر من باطل بسبب حسن العرض، وجمال العبارة.

في زخرف القول تزييناً لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير

فلا ينبغي لشخص أن يدخل في حوار إلا وقد أحاط به علماً؛ فالعلم بموضوع الحوار، والعلم بتفاصيله، والتسلح بالحجج والبراهين سلاح ماضٍ بيد المحاور الناجح؛ إذ يمكنه من الوقوف على أرض ثابتة، وليس على رمال متحركة؛ فالمستيقن من الحق الذي معه تراه مطمئن الخاطر، آمناً على مذهبه من صولة الباطل؛ فينطق عن أناة وتخيّر للأقوال الصائبة.

والعرب تقول: = قبل الرمي يراش السهم+، أي هَيَّء الأمر، وأعدّه قبل حاجتك إليه. (1)

أما من لم يكن على بصيرة من رأيه فإنه ينزعج عند الحوار، ويطيش به الجدل، حتى يقذف بالسباب، ويلفظ بالكلام من قبل أن يقيم له وزناً.

والعرب تقول في أمثالها: = عند النطاح يُغلبُ الكبش الأجم+؛ لأنه فعل ذلك من غير عُدَّةٍ هَيَّأها. (2)

ثم إن حق الإعراض والتخطئة، والتصدي للمحاور لا يتأتى لجاهل في مواجهة عالم، بل ولا يقبل منه. ومن لا يعلم لا يصح له أن يتصدي لمن يعلم، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

ولا يلزم من لديه علم أن يدخل في كل حوار؛ بل ينبغي له أن لا يدخل حواراً إلا وهو عالم به؛ إذ أن مجرد علمه في الأصل لا يكفي. وخير ما يستعين به المحاور عند إرادته الحوار في موضوع ما أن يجمع أطراف الموضوع، ويتصور جميع احتمالاته، ووجوهه،

(1) الأمثال لأبي عبيد ص215.

(2) الأمثال لأبي عبيد ص215.

وأن يطلع على ما كتب فيه سواء من المؤيدين أو المعارضين، وأن يكون ذا نظرٍ ثاقبٍ، وخبرة عالية بظروف المكان والزمان، وتطورات العلوم والمعارف، وطبائع النفوس ونزواتها. وكلما كان أحسن في عرض معلوماته وإثبات أفكاره_ كلما كانت الاستجابة له أدعى وأكبر(1).

ن_ إصدار الأحكام في مستهل الحوار:

فمن المحاورين من يكون على بَيِّنَةٍ من أمره، وعلى علم بمادة حوارهِ، ولكنه يتعجل النتائج، فيصدر أحكامه في بداية حديثه، ويجهر برأيه الصريح في مستهل حوارهِ، وهذا مما قد يسبب ردّ كلامه، والاعتراض عليه، والنفور منه ولو كان الحق معه. فمن الحكمة أن يتدرج المحاور في طرح أفكارهِ، ومن حسن السياسة أن لا يجهر برأيه الصريح في صدر مقاله.

وإنما يبتدأ بما يخف على المخاطبين سماعه من المعاني الحائمة حول الغرض، ثم يعبر عن المراد بلفظ مجمل، ثم يدنو من إيضاحه شيئاً فشيئاً، حتى لا يفصح عنه إلا وقد أَلْفَتُهُ نفوسهم، وهدأت له خواطرهم.

وعلى هذه الطريقة جرى مؤمن آل فرعون؛ فقد كان يكتُم إيمانه وهو يحب أن يظهره، ويدعو قومه إلى مثله.

وكان يخشى بادرة غضبهم أو انتقامهم منه إذا هو صرَّح بعقيدته. وعندما أجمعوا على قتل موسى عليه السلام_ بادر هذا المؤمنُ الفرصة، واغتنم هذا الوقت، فقام ينكر عليهم هذه المؤامرة المخزية، وتخلَّص إلى أن دعاهم إلى الإيمان بما بُعث به هذا الرسول دعوة ظاهرة.

قال تعالى: [وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم] (غافر: 28).

(1) انظر في أصول الحوار ص33_34، والدعوة إلى الإصلاح ص54_55.

فلقد فاتحهم بالإنكار على قتله، وهذا لا يدل على أنه مُصَدِّقٌ برسالته؛ إذ قد ينهى العاقل عن سفك دم الرجل وهو من أبغض الناس إليه؛ تألماً من مشهد الظلم، أو حذراً مما ينشأ عنه فتنة. ودل بقوله: [أن يقول ربي الله] على ما لهذا الرجل من فضل في العقيدة، وأدماً إلى أنه لم يجيء شيئاً نكراً يستحق به هذه العقوبة الصارمة.

وذكرهم إذ قال: = وقد جاءكم بالبينات من ربكم+ بالدلائل القائمة على صدقه في دعوى هذه الرسالة، وأخذ يتقرب بهذه الجملة من دعوتهم إلى ربه، ولم يرد التظاهر أنه من شيعته، فعزل نفسه عنم جاءهم بهذه البينات، وأضاف مجيئها إليهم خاصة، ثم استرسل في موعظته المنسوجة، ودعاهم إلى دين الحق بقوله الصريح كما قال تعالى عنه: [وياقوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، تدعونني لأكفر بالله، وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار] (غافر: 41_42).

ولو أنه فاتحهم بهذه الدعوة الصريحة في بداية خطابه لربما ردوه، ولم يقبلوا منه شيئاً البتة. (1)

س_قلة المراعاة لعامل الزمان والمكان:

وذلك بأن يكون الحوار في زمان ضيق لا يتسع للأخذ والرد، كأن يكون قبيل وقت صلاة، أو أن يكون أحدهما على جناح سفر، أو يكون مستعداً لنوم، أو نحو ذلك.

ومن ذلك أن يكون الحوار في مكان مليء بالناس؛ فذلك مدعاة للرياء، والعناد، والحرص على الغلبة، والإطاحة بالخصم. والأولى أن يكون في مكان محدد؛ فذلك أجمع للفكرة، وأدعى لقبول الحق، وأقرب لصفاء الذهن، وأسلم لحسن القصد.

ع_التشعب في الحوار، والخروج عن المضمون:

(1) انظر الدعوة إلى الإصلاح ص 63_64.

فهذا من آفات الحوار، ومما يفقده أهميته، ويقلل الفائدة المرجوة منه.

فينبغي للمتحاورين أن يكون كلاهما ملائماً للموضوع، ليس فيه خروج عما هما بصدده.(1)

ف_محاورة ذي المهابة العظيمة:

فلا يحسن بالمرء أن يدخل حوار مع أهل المهابة العظيمة والاحترام الوافر؛ كيلا تدهشه وتذهله جلاله محاوره عن القيام بحجته كما ينبغي.(2)

أما إذا كان المرء رابط الجأش، ساكن النفس، عالماً متيقناً بأن مهابة محاوره لن تقصره عن الإبانة عما لديه_ فلا بأس بالمحاورة حينئذ.

30_الجدال والمرء والخصومة:

وهذا دأب كثير من الناس سواء في أحاديثهم ومنتدياتهم، أو في مطالباتهم وخصوماتهم، فتراهم يتجادلون ويتمارون عند كل صغيرة وكبيرة.

لا لجلب مصلحة، ولا لدرء مفسدة، ولا لهدف الوصول إلى الحق والأخذ به، وإنما رغبة في اللدد والخصومة، وحباً في التشفي من الطرف الآخر.

ولهذا تجد الواحد من هؤلاء يُسَفِّه صاحبه، ويرذل رأيه، ويرد قوله. فلا يمكن_ والحالة هذه_ أن يصل المتجادلون إلى نتيجة طالما أن الحق ليس رائدهم ومقصودهم.

وإذا الخصمان لم يهتديا سنَّة البحث عن الحق غبر(3)

فالجدال والمرء على هذا النحو مجلبة للعداوة، ومدعاة للتعصب، ومطية لاتباع الهوى.

(1) انظر آداب البحث والمناظرة للشيخ محمد الأمين الشنقيطي 76/2.

(2) انظر آداب البحث والمناظرة 76/2.

(3) خواطر الحياة لمحمد الخضر حسين ص 77.

بل هو ذريعة للكذب، والقول على الله بغير علم خصوصاً إذا كان ذلك في مسائل الدين، وهذا أقبح شيء في هذا الباب.
قال الإمام النووي^x: =مما يذم من الألفاظ المراء، والجدال، والخصومة.

قال الإمام أبو حامد الغزالي: المراء طعنك في كلام الغير لإظهار خلل فيه؛ لغير غرض سوى تحقيق قائله، وإظهار مزيتك عليه.
قال: وأما الجدال فعبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها.
قال: وأما الخصومة فلجأج في الكلام؛ ليستوفي به مقصوده من مال أو غيره.

وتارة يكون ابتداءً، وتارة يكون اعتراضاً، والمراء لا يكون إلا اعتراضاً هذا كلام الغزالي⁽¹⁾.

ثم قال الإمام النووي^x: =واعلم أن الجدال قد يكون بحق، وقد يكون بباطل، قال الله تعالى: [ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن] (العنكبوت:46).

وقال تعالى: [ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا] (غافر: 4).
فإن كان الجدال الوقوف على الحق وتقريره كان محموداً، وإن كان في مدافعة الحق، أو كان جدالاً بغير علم كان مذموماً.

وعلى هذا التفصيل تنزيل النصوص الواردة في إباحته وذمه⁽²⁾.
ثم قال^x: =قال بعضهم: ما رأيت شيئاً أذهب للدين، ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة، ولا أثقل للقلب من الخصومة.

فإن قلت لا بد للإنسان من الخصومة؛ لاستبقاء حقوقه فالواجب ما أجاب به الإمام الغزالي أن الذم المتأكد إنما هو لمن خاصم بالباطل أو بغير علم، كوكيل القاضي؛ فإنه يتوكل في الخصومة قبل أن يعرف أن الحق في أي جانب هو فيخاصم بغير علم.

(1) الأذكار ص 329_330.

(2) الأذكار ص 330.

ويدخل في الذم أيضاً من يطلب حقه، لكنه لا يقتصر على قدر الحاجة، بل يظهر اللدد، والكذب؛ للإيذاء والتسليط على خصمه. وكذلك من خلط بالخصومة كلمات تؤذي، وليس إليها حاجة في تحصيل حقه.

وكذلك من يحملة على الخصومة محض العناد؛ لقهر الخصم وكسره، فهذا هو المذموم.

وأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد أو إسراف، أو زيادة لجاج على الحاجة من غير قصد عناد ولا إيذاء ففعله هذا ليس حراماً.

ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً؛ لأن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر.

والخصومة تُؤغِرُ الصدر، وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب حصل الحقد بينهما حتى يفرح كل واحد منهما بمساءة الآخر، ويحزن بمسرتة، ويطلق العنان بعرضه.

فمن خاصم فقد تعرض لهذه الآفات، وأقل ما فيه اشتغال القلب، حتى يكون في صلاته، وخاطره معلق بالمحاجة والخصومة، فلا يبقى حاله على الاستقامة.

والخصومة مبدأ الشر، وكذلك الجدل والمراء؛ فينبغي ألا يفتح عليه باب الخصومة إلا لضرورة لا بد منها، وعند ذلك يحفظ لسانه وقلبه من آفات الخصومات.⁽¹⁾

ولما كان هذا هو شأن الجدل والمراء والخصومة تجنب السلف ذلك، وحذروا منه، وورد عنهم آثار كثيرة فيه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: =كفى بك ظلاماً ألا تزال مخاصماً، وكفى بك إثماً ألا تزال ممارياً+.⁽²⁾

(1) الأذكار ص 330_331 وانظر إحياء علوم الدين للغزالي 116/3_120.

(2) بهجة المجالس 429/2.

وقال ابن عباس لمعاوية رضي الله عنهما: = هل لك في المناظرة فيما زعمت أنك خاصمت فيه أصحابي؟
 قال: وما تصنع بذلك؟ أشعَبُ بك وتشغب بي، فيبقى في قلبك ما لا ينفَعُك، ويبقى في قلبي ما يضرُك+. (1)
 وقال ابن أبي الزناد: = ما أقام الجدلُ شيئاً إلا كسره جدلٌ مثله+. (2)
 وقال الأوزاعي: = إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل+. (3)
 وقال الأصمعي: = سمعت أعرابياً يقول: من لاحى الرجال وماراهم قلَّتْ كرامته، ومن أكثر من شيء عُرف به+. (4)
 وأخرج الأجرى بسنده عن مسلم بن يسار× أنه قال: = إياكم والمرء؛ فإنه ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته+. (5)
 وأخرج أن عمر بن عبدالعزيز× قال: = من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل+. (6)
 وقال عبدالله بن حسين بن علي رضي الله عنهم: = المرء رائد الغضب؛ فأخزى الله عقلاً يأتيك بالغضب+. (7)
 وقال محمد بن علي بن حسين رضي الله عنهم: = الخصومة تمحق الدين، وتنبت الشحناء في صدور الرجال+. (8)
 وقيل لعبدالله بن حسن بن حسين: = ما تقول في المرء؟
 قال: يفسد الصداقة القديمة، ويحل العقدة الوثيقة.

(1) بهجة المجالس 2/429_430.

(2) بهجة المجالس 2/430.

(3) بهجة المجالس 2/430.

(4) بهجة المجالس 2/430.

(5) الشريعة للأجري ص56، وانظر الحجة في بيان المحجة للأصبهاني 1/280.

(6) الشريعة للأجري ص56، وانظر الحجة في بيان المحجة للأصبهاني 1/280.

(7) بهجة المجالس 2/429.

(8) بهجة المجالس 2/429.

وأقل ما فيه أن يكون دريئة للمغالبة، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة+. (1)

وقال جعفر بن محمد×: =إياكم وهذه الخصومات؛ فإنها تشغل القلب+. (2)

وقال ثابت بن قرة×: =إياكم وهذه الخصومات، فإنها تحبط الأعمال+. (3)

وقيل للحكم بن عتيبة الكوفي×: =ما اضطر الناس إلى هذه الأهواء؟ قال: الخصومات+. (4)

وما أجمل قول الشافعي× حين قال:

قالوا سكتٌ وقد خوصمت قلتُ إن الجوابَ لبابِ الشرِّ مفتاحُ

والصمت عن جاهلٍ أو أحمقٍ وفيه أيضاً لصون العرض

أما ترى الأسدَ تُخشى وهي والكلبُ يُخسى لعمرى وهو

..أ. (5)

31_ حب المعارضة والمخالفة:

فمن الناس من هو محب للمعارضة، كلفٌ بالمخالفة، لا يوافق إخوانه على أمر، ولا يسلم لهم بشيء.

فإذا كان في قومٍ يتبادلون أطراف الحديث أشغلهم بكثرة شغبه واعتراضه.

وهذا المسلك ليس بسديد و لا رشيد؛ إذ المروءة تقتضي موافقة المرء إخوانه إذا أصابوا، وتسديدهم برفق إذا أخطأوا، وأن يتوقف إذا لم يستتب له الصواب من الخطأ.

فالموافقة وقلة المعارضة تجلب المحبة، وتسديم الألفة، وكثرة المعارضة وقلة الموافقة تستدعي المباغضة، وتقود إلى العداوة.

(1) بهجة المجالس 429/2.

(2) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي 128/1_129.

(3) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي 128/1_129.

(4) الحجة في بيان الحجة 285/1.

(5) ديوان الشافعي في تحقيق خفاجي ص 88.

قال الشافعي x:

أحبُّ من الإخوان كلَّ مُواتي وكلَّ غضيضِ الطَّرْفِ عن
يوافقني في كلِّ أمرٍ أقولُه ويحفظني حياً وبعد مماتي
فمن لي بهذا؟ ليت أني لقيته لقاسمته مالي من الحسنات (1)

وقال ابن حزم x: =إياك ومخالفة الجليس، ومعارضة أهل زمانك
فيما لا يضرُّك في دنياك ولا في آخرتك وإن قل؛ فإنك تستفيد بذلك
الأذى، والمنافرة، والعداوة.

وربما أدى ذلك إلى المطالبة والضرر العظيم دون منفعة
أصلاً. (2)

وقال الخطابي x محذراً من هذا الأمر: =وقال بعضهم: إن من الناس
من يولع بالخلاف أبداً، حتى إنه يرى أن أفضل الأمور ألا يوافق
أحداً، ولا يجامعه على رأي، ولا يواتيه على محبة.
ومن كان هذا عادته فإنه لا يبصر الحق، ولا ينصره، ولا يعتقد
ديناً ومذهباً.

إنما يتعصب لرأيه، وينتقم لنفسه، ويسعى في مرضاتها، حتى لو
أنك رُمْتَ أن تَنَرِّضَاهُ، وتوَحَّيْتَ أن توافقه على الرأي الذي يدعوك
إليه تَعَمَّدَ لخلافك فيه، ولم يرض به حتى ينتقل إلى نقيض قوله
الأول.

فإن عُدت في ذلك إلى وفاقه عاد فيه إلى خلافك.

قال أبو سليمان الخطابي: فمن كان بهذه الحال فعليك بمباعدته،
والنِّفار عن قربه؛ فإن رضاه غاية لا تدرك، ومدى شأوه لا
تُلحق. (3)

(1) ديوان الشافعي ص 84.

(2) الأخلاق والسير ص 61.

(3) العزلة للخطابي ص 166.

ثم أورد^x أمثلة لذلك، فقال: = أخبرني ابن التَّعْيَانِي، قال: أخبرنا الرَّجَاج، قال: كنا عند الميرد أبي العباس محمد، فوقف عليه رجل، فقال: أسألك عن مسألة في النحو؟.

قال: لا، فقال: أخطأت، فقال: يا هذا! كيف أكون مخطئاً أو مصيباً ولم أجبك عن المسألة بعد؟!.

فأقبل عليه أصحابه يُعَيِّفُونَهُ، فقال لهم: خَلُّو سَبِيلَهُ، وَلَا تَعَرَّضُوا لَهُ، أنا أخبركم بقصته؛ هذا رجل يحب الخلاف، وقد خرج من بيته وقصدني على أن يخالفني في كل شيء أقوله، ويخطئني فيه، فسبق لسانه بما كان في ضميره⁽¹⁾.

32_ بذاءة اللسان، والتفحش في القول:

فبذاءة اللسان، والتفحش في القول من خوارم المروءة، ومن أمارات القحة والصفاقة؛ فالحياء في الكلام يتطلب من المسلم أن يُنَزِّهَ لسانه من الفحش، وأن يُطَهِّرَهُ من البذاءة، وأن يُجَلِّهَ من ذكر العورات؛ فإن من سوء الأدب أن تفلت الألفاظ البذيئة من المرء غير عابئ بمواقعها وآثارها⁽²⁾.

والمروءة تحفظ لسان صاحبها من أن يلفظ مثلما يلفظ أهل الخلاعة من سفه القول.

وحذارٍ من سَفَهٍ يَشِينُكَ وَصَفُهُ إِنْ السَّفَاهَ بَدَى المروءة
= وعظماء الرجال يلتزمون في أحوالهم جميعاً ألا تبدر منهم لفظة
نايبة، ويتخرجون مع صنوف الخلق أن يكونوا سفهاء أو
متطاولين⁽⁴⁾.

قال الإمام النووي^x: =ومما ينهى عن الفحش، وبذاءة اللسان.
والأحاديث الصحيحة فيه كثيرة و معروفة.

(1) العزلة للخطابي ص 166_167.

(2) انظر خلق المسلم ص 81.

(3) انظر رسائل الإصلاح 211/1.

(4) خلق المسلم ص 81.

ومعناه: التعبير عن الأمور المستقبحة بعبارة صريحة وإن كانت صحيحة، والمتكلم بها صادقاً. ويقع ذلك كثيراً في ألفاظ الوقاع ونحوها. وينبغي أن يستعمل في ذلك الكنايات، ويعبر عنها بعبارة جميلة يفهم بها الغرض. وبهذا جاء القرآن العزيز، والسنن الصحيحة المكرمة، قال الله تعالى: [وَأَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ] (البقرة: 187).

وقال تعالى: [وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض] (النساء: 21). وقال تعالى: [وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن] (البقرة: 237)

والآيات، والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة. قال العلماء: فينبغي أن يُستعمل في هذا وما أشبهه من العبارات التي يستحيا من ذكرها بصريح اسمها الكنايات المفهومة، فيُكنَّى عن جماع المرأة بالإفشاء، والدخول، والمعاشرة، والوقاع، ونحوها. (1) قال: = وكذلك يُكنَّى عن البول والتغوط بقضاء الحاجة، والذهاب إلى الخلاء، ولا يصرح بالخرأة والبول ونحوهما. وكذلك ذكر العيوب كالبرص، والبخر، والصنان، وغيرها يعبر عنها بعبارات جميلة، يفهم منها الغرض. ويلحق بما ذكر من الأمثلة ما سواه. (2) قال القاسمي: = وإياك وما يستقبح من الكلام؛ فإنه يُنقَر عنك الكرام، ويُوثب عليك اللئام. (3) وعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله: "ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش البذيء." (1)

(1) الأذكار للنووي ص334.

(2) الأذكار ص334.

(3) جوامع الآداب ص6.

وعن أنس -قال: قال رسول الله: " =ماكان الفحش في شيء إلا شأنه، وماكان الحياء في شيء إلا زانه+. (2)
ومما يدخل في فحش القول السبُّ، والشتيم، واللعن.
ومما يدخل فيه_ أيضاً_ ماكان مستنكر الظاهر، وإن كان معناه سليماً بعد تدقيق النظر فيه.
وقال الماورديx: =ومما يجري مجرى فحش القول وهجره في وجوب اجتنابه، ولزوم تنكبه_ ماكان شنيع البديهة، مستنكر الظاهر، وإن كان عقب التأمل سليماً، وبعد الكشف والروية مستقيماً+. (3)
ثم ساق أمثلة لذلكx.
ومما تجدر الإشارة إليه أنه لا ينبغي التصريح بالعبارات القبيحة المستكرهة ما لم تدعُ حاجةٌ كما مر_.
أما إذا دعت الحاجة للتصريح بصريح الاسم فلا بأس بذلك، بل هو المتعين.
قال النووي بعد أن تحدث عن أنه ينبغي تجنب الفحش وبذاءة اللسان: =واعلم أن هذا كله إذا لم تدعُ حاجةٌ إلى التصريح بصريح اسمه، فإن دعت الحاجة لغرض البيان والتعليم، وخيف أن المخاطب يفهم المجاز، أو يفهم غير المراد_ صرّح حينئذٍ باسمه الصريح؛ ليحصل الإفهام الحقيقي.

(1) أخرجه أحمد 404/1، والترمذي (1977) والبخاري في الأدب المفرد (332) والبلغوي في شرح السنة (3555) وابن أبي شيبة 18/11 كلهم عن ابن مسعود، وقال الترمذي =حديث حسن غريب + وصحه أحمد شاكر في شرحه للمسند (3839) وصحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (237).
(2) أخرجه أحمد 165/3، والترمذي (1974) وابن ماجه (4185) والبخاري في الأدب المفرد كلهم عن أنس (601) وقال الترمذي = حسن غريب + وصحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (469).
(3) أدب الدنيا والدين ص 284.

وعلى هذا يحمل ما جاء في الأحاديث من التصريح بمثل هذا؛ فإن ذلك محمول على الحاجة كما ذكرنا؛ فإن تحصيل الإفهام في هذا أولى من مراعاة مجرد الأدب، وبالله التوفيق+. (1)

33_التَّقَعُّرُ فِي الْكَلَامِ:

التقعر أو التقعير في الكلام هو أن يتكلم المرء بأقصى قعر فمه؛ إظهاراً لفصاحته، وتميزه، وبراعته.

وذلك ممقوت مذموم؛ لما فيه من قصد التكلف البعيد عن الطبع، ولما يحويه من تتبع الوحشي الذي ينفر منه السمع، ولما يتضمنه من التشادق والتعمق والإغراق في القول.

قال الإمام النووي×: =ويكره التقعير في الكلام بالتشدد، وتكلف السجع، والتصنع بالمقدمات التي يعتادها المتفاسحون، وزخارف القول.

فكل ذلك من التكلف المذموم، وكذلك تكلف السجع، وكذلك التحري في دقائق الإعراب، ووحشي اللغة في حال مخاطبة العوام. بل ينبغي أن يقصد في مخاطبته لفظاً يفهمه صاحبه فهماً جلياً، ولا يستثقله+. (2)

قال عليه الصلاة والسلام: =وإن أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني في الآخرة_ أسوأكم أخلاقاً الثرثارون، المتفيهقون، المتشددون+. (3)
وقال: =إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تَخَلَّلُ الباقرة(4) بلسانها+. (5)

(1) الأذكار ص334_335.

(2) الأذكار ص331.

(3) مضى تخريجه ص5.

(4) الباقرة: البقرة.

(5) أخرجه أحمد2/165_187، وأبو داود(5005)، والترمذي (2853)، كلهم عن عبد الله بن عمر، وقال الترمذي =حسن غريب+ وصححه أحمد شاكر في شرحه للمسنَد (6543) وصححه الألباني في صحيح الجامع (1871).

وليس معنى ذلك أن لا يحرص المرء على حسن منطقه، ورشاقة لفظه، وجودة عبارته، فيلجأ إلى الألفاظ السوقية المبتذلة؛ فراراً من التكلف والتعير بزعمه.

وإنما المقصود أن لا يُعْرَقَ في التكلف فيتعدى حدود الذوق. وإلا فإن حسنَ المنطق، وروعة البيان من مظاهر المروءة الصادقة، ومن أعظم الأسباب الداعية لقبول الحق.

ولهذا قيل: =كلما كان اللسان أبين كان أحمد+. (1)

بل لقد=ذكر الله تبارك وتعالى جميل بلائه في تعليم البيان، وعظيم نعمته في تقويم اللسان فقال: [الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان] (الرحمن: 1_4).

وقال تعالى: [هذا بيان للناس] (آل عمران: 138).

ومدح القرآن بالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ، وسماه فرقاناً، كما سماه قرآناً. (2) ولهذا يحسن بالخطيب والواعظ أن يُهَدَّبَ ألفاظه، وأن يُجَمَّلَ كلامه؛ ليقع موقعه في القلوب، فهذا لا يدخل في المذموم بشرط أن لا يتقصد حوشي الكلام، ولا يتعمد التعير، ولا يتكلف تكلفاً يخرج عن طوره. قال الغزالي: =ولا يدخل في هذه (3) تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط ولا إغراب؛ فإن المقصود منها تحريك القلوب، وتشويقها، وقبضها، وبسطها؛ فلرشاقة اللفظ تأثير فيه؛ فهو لائق به.

فأما المحاورات التي تُجرى لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع، والتشدد.

(1) البيان والتبيين للجاحظ 11/1.

(2) البيان والتبيين 8/1.

(3) يعني الأمور المذمومة.

والاشتغال به من التكلف المذموم، ولا باعث عليه إلا الرياء، وإظهار الفصاحة، والتميز بالبراعة، وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع، ويزجر عنه⁽¹⁾.

قال إبراهيم بن المهدي لعبدالله بن صاعد كاتبه: =إياك وتنبّع الوحشي من الكلام؛ طمعاً في نيل البلاغة؛ فإن ذلك هو العيُّ الأكبر؛ عليك بما سهل مع تَجَنُّبِكَ أَلْفَاظَ السَّفَلِ+⁽²⁾.

وبالجملة فليحرص المرء على تجنب السوقى القريب، والوحشي الغريب، حتى يكون كلامه حالاً بين حالين، كما قال بعض الشعراء: عليك بأوساط الأمور؛ فإنها نجاةٌ ولا تتركب ذللاً ولا

قال أبو هلال العسكري: =وأجود الكلام ما يكون جزلاً سهلاً، لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدوداً مستكراً، ومُتَوَعِراً مُنْفَعِراً، ويكون بريئاً من الغثائفة، عارياً من الرثائفة.

والكلام إذا كان لفظه غثاً، ومعرضه رثاً كان مردوداً ولو احتوى على أجلٍ معنًى وأنبله وأرفعه وأفضله⁽⁴⁾.
ومن هنا يتبين لنا أن المذموم من الكلام إنما هو ما كان متكلفاً ومشتملاً على التعكير.

أما حسن المنطق وجمال العبارة، ورشاقة الألفاظ فمحمود مرغوب فيه، خصوصاً إذا كان في بيان الحق.

نظر معاوية إلى ابن عباس _ رضي الله عنهما _ فأتبعه بصره، ثم قال متمثلاً:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ مصيب ولم يئنّ اللسان على
يُصَرِّفُ بالقول اللسان إذا وَيُنْظِرُ في أعطافه نظرَ
١١ ١١ (1)

(1) إحياء علوم الدين 121/2.

(2) العمدة لابن رشيق 266/2.

(3) العمدة 199/1 وانظر البيان والتبيين 1/255.

(4) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص 67.

ولحسن بن ثابت في ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ بمنطلقات لا ترى بينها فصلاً شفى وكفى ما في النفوس فلم لذي إزبة في القول جداً ولا قال ابن عبد البر: = ومن أحسن ما قيل في مدح البلاغة من النظم قول حسان بن ثابت في ابن عباس: صموت إذا ما الصمت زينٌ وفنأق أبار الكلام المخبم أوعى ما وعى القرآن من كلٍ ونيطت له الآداب باللحم (3) . 11

34_ الخوض فيما لا طائل تحته:

فأكثر الناس لا يكاد ينقطع لهم كلام، ولا تهدأ لألسنتهم حركة، فإذا ذهبت تحصي ما قالوا وجدت جلّه لغواً ضائعاً، أو هذراً ضاراً، لا يقدم ولا يؤخر، ولا يسمن ولا يغني من جوع، بل هو إلى الضرر أقرب منه إلى النفع.

فما القضايا التي تطرح، وما الموضوعات التي تطرق؟ إنك لو أجلت النظر في مجالس الناس، وأصخت السمع لأحاديثهم لوجدت أن جلّ حديثهم واهتمامهم إنما هو بطرح قضايا باردة، أو بطرق موضوعات تافهة، تنم عن همم دانية، وعقول خاوية، ولا تحطّب المعالي، ولا تنشد الكمالات، بل تدور حول الصغائر والفساسف والمحقرات.

فتارة يتحدثون عن الرياضة ومن فاز، ومن هزم، ومن أصيب من اللاعبين ومن شفي؟.

وتارة عن الفن وأخبار أهله، وقراءة مذكراتهم، ومتابعة آخر أعمالهم.

(1) بهجة المجالس 58/1، والتمهيد لابن عبد البر 179/5.

(2) بهجة المجالس 58/1، والتمهيد لابن عبد البر 179/5.

(3) التمهيد 178/5.

وإن سَمَتْ تلك المجالس قليلاً أغرقت بالحديث عن حطام الدنيا، وعن المصالح الخاصة فحسب.
 وإلا مُلئت بِتَسْقُطِ الأخبار، وتتبع العيوب، ونحو ذلك.
 فما لهذا رُكِبَتِ الألسنة في الأفواه، ولا بهذا تُقَدَّرُ نعمة اللسان وموهبة البيان.
 لقد أنعم الله على الإنسان بتلك النعمة، وكرَّمه بها على سائر المخلوقات.
 وعلى قدر جلال النعمة يعظم حقُّها، ويستوجب شُكْرُها، ويستنكر كنودها.(1)

ولقد بين الإسلام كيف يستفيد الناس من هذه النعمة المسداة، وكيف يجعلون كلامهم الذي يتردد على الألسنة طريقاً إلى الخير المنشود، بدلاً من شغله بما لا ينفع أو ربما ضر.

قال الله تعالى: [لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً] (النساء: 114).

فأولى ثم أولى لتلك المجالس أن تشغل بما ينفع، ولتلك الألسنة أن تلهج بما يعود على أصحابها بالفائدة، وذلك بالتواصي بالبر والتقوى، وبالأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، أو بالحديث عن مسائل العلم التي يُصَحِّحُ بها الإنسان عقيدته وعمله، أو بالحديث عن أخبار المسلمين في أنحاء المعمورة، وبيان ما يصيبهم من البأساء والأواء؛ حتى تنبعث القلوب للتعاطف معهم، وبذل ما يستطيع من مال، أو دعاء، أو نحو ذلك مما يعود بالفائدة في الدنيا والآخرة.
 أو أن تشتمل على أخبار الكرام، والشجعان، وذوي المروءات، ونحو ذلك مما يجمع إلى جانب المتعة الفائدة.

قال المهلب: =خير المجالس ما بَعُدَ فيه مدى الطَّرْفِ، وكثرت فيه فائدة الجليس+. (1)

(1) انظر خلق المسلم ص77.

35_ كثرة التلاوم:

وهذا دأب كثير من الناس، فنزاهم في اجتماعاتهم، ومنتدياتهم، وأحاديثهم يقضون الساعات الطوال في التلاوم، وذم الأوضاع، وانتقاد الآخرين، والتشدد بمعالي الأمور دون سعي لها.

قال العلامة محمد الخضر حسين^x: = فإذا رأيت قوماً يذكرون في صبحهم ومساءهم شيئاً من معالي الأمور، ولم تَرَهم يسعون له سعيه، ولا يتقدمون إليه بخطوة فاعلم أن العزم لم يأخذ من قلوبهم مأخذه، فهم إما أن يكونوا عن حقيقته وشرف غايته غائبين، وإما أنهم ضلوا طريقه وما كانوا مهتدين+. (2)

وإذا كان الأمر كذلك فإن تحقيق الأمانى، وبلوغ الغايات لا ينال بكثرة التلاوم، ولا باجترار الأحزان على الماضي، والندم على مافات؛ فهذا ضرب من البطالة.

وإنما يكون بالجد، والعمل، وترك التواني والكسل، واغتنام كل فرصة يُتقدم بها نحو الأمام خطوة، فهذا آية الكيس، وعنوان الحزم.

36_ كثرة الشكوى إلى الناس:

فما أكثر ما يرى من ديدنه وهجيره الشكوى إلى الناس، وكثرة التسخط.

فلا يعجبه أحد، ولا يروقه شيء.

فإذا ما جلس مجلساً بثَّ شكاته إلى جُلَّسه، وآذاهم بكثرة اعتراضه وتسخطه.

فتراه يشكو فقره، وأولاده، وزوجته، ودابته، ومزرعته، وعمله، ومديره، ومن تحت يده، وربما شكى الحر والقر وهكذا...

فهذا الصنيع دليل على ضعة النفس، وسقوط الهمة، وقلة التحمل.

ثم إنه مدعاة لكرهية الناس لذلك الشخص، وتكذيبهم لحديثه، بل ربما أظهروا له الشماتة، وفرحوا بمصابه.

(1) رسائل الإصلاح/1/68.

(2) عيون الأخبار/1/306.

ثم إنه هذا العمل يُسَوِّغ للمرء إخفاقه، وعجزه، وكسله، فلا يسعى لتكميل نفسه، وإصلاح عيوبه.

فالثائق بالمسلم العاقل أن يخزن عليه لسانه، وأن يتحلى بالصبر الجميل، الذي لا جزع فيه ولا شكوى، وألا يشكو إلا إلى ربه، وألا ينزل حاجاته إلا ببابه؛ فالناس لا يملكون له ضراً ولا نفعاً.

ولهذا = رأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقتنه وضرورته فقال: يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك+. (1)

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

37_ كثرة الحديث عن النساء:

وليس المقصود هنا ما يدور في مجال الخنا، والفسق، والفجور من تشبيب، ومجون، وخلاعة سافرة؛ فلهؤلاء حديث آخر. وإنما المقصود في هذا المقام ما يدور في بعض المجالس العامة، وربما كان ذلك في بعض مجالس الفضلاء ممن يتوسم فيهم الخير، والديانة، والمروءة.

فتجد أن تلك المجالس تعمر بذكر النساء، ويكثر مرتادوها من الحديث عنهن.

وربما كانت تلك المجالس ميداناً للتنافس، والتفاخر، والتحدي؛ فهذا يفاخر بأنه قد عدّد، وهذا يتحدى صاحبه بأن يتزوج بثانية، وهذا يزري بالآخرين؛ لاقتصارهم على واحدة.

بل ربما تمادى بهم الأمر، فتعمقوا في ذكر النساء، وأغرقوا في وصف محاسنهن، وأصبح ذلك دأبهم وديدنهم، بل ربما كان ذلك بحضرة الصبيان والسفهاء.

قال الأحنف بن قيس×: =جئبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام؛ إني أبغض الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه+. (2)

(1) الفوائد لابن القيم ص131.

(2) سير أعلام النبلاء 4/94.

وليس المقصود من هذا أن يمنع الحديث عن النساء بإطلاق، ولا أن يُثَرَّبَ على من يلم بالحديث عنهن لمأماً، وفي أحيان متفرقة، وأوقات مناسبة.

وإنما المقصود ألا يكون ذلك سمة في المرء، وديناً وعادةً له، يتحدث به عند كل أحد، بمناسبة وبغير مناسبة؛ فكمال المروءة ألا يكثر المرء من الحديث عن النساء على نحو ما سبق؛ لأن في كثرة الحديث عنهن خدشاً للمروءة، وإسقاطاً للهيبة، وإضاعة للوقت، واشتغالاً عما هو أولى وأحرى.

38_ كثرة الهزل:

فهناك من الناس من يغلب عليه طابع الهزل، فلا يعرف للجد سبيلاً، ولا لمعالي الأمور طريقاً.

فإذا جلس مجلساً أضفى عليه ما أضفى من هزله، وتخاذله، ورخاوته، وملاه بهزئه، وسخريته، وكلامه السمج الذي يسمونه=التنكيت+الخارج عن حدود الأدب واللياقة؛ فإن هؤلاء المُتَكَبِّرِينَ ينالهم الذل والصغار، واحتقار العقلاء لهم، فيكبرون وهم الأصغرون. (1)

وليس معنى ذلك أن ينقبض المرء في مجلسه، وأن يثقل على من حوله_بقدر ما هي دعوة لتخليص تلك المجالس من أن تتمحض للهزل.

ومن أمثال العرب السائرة قولهم: =الانقباض عن الناس مَكْسَبَةٌ للعداوة، والإفراط في الأنس مكسبة لقرناء السوء+. (2)

39_ كثرة المزاح:

وهذا الأمر قريب من سابقه، فبعض الناس يغلب عليه كثرة المزاح، وربما أسفَّ فيه، ومزح مع من لا يرغب في المزاح.

(1) انظر جوامع الآداب ص27.

(2) الأمثال لأبي عبيد ص220.

وهذا الأمر لا ينبغي؛ فالمزاح يسقط الهيبة، ويخل بالمروءة، ويُجَرِّىءُ السفهاء، ويستجلب العداوات. قيل في بعض منثور الحكم: =المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب+. (1)

وقال بعض الحكماء: =من كثر مزاحه زالت هيئته+. (2)
وقال الإمام ابن عبدالبر: =وقد كره جماعة من العلماء الخوض في المزاح؛ لما فيه من ذميم العاقبة، ومن التوصل إلى الأعراض، واستجلاب الضغائن، وإفساد الإخاء+. (3)
وقال ميمون بن مهران: =إذا كان المزاح أمام الكلام فأخره الشتم واللطم+. (4)
وقال أبو هفان:

ما زح صديقك ما أحبّ مزاحاً وتوقّ منه في المزاح جماحاً
فلربما مزح الصديق بمزحةٍ كانت لبابِ عداوةٍ مفتاحاً (5)

وقال ابن وكيع:
لا تمزحَنَّ فإن مزحت فلا يكن مزحاً تضافُ به إلى سوء
واحذر ممازحةً تعود عداوةً إن المزاحَ على مقدمة
ولأبي جعفر محمد بن جرير الطبري:
لي صاحبٌ ليس يخلو لسأته عن جراح
يجيد تمزيقَ عرضي على سبيل المزاحي (1)

(1) أدب الدنيا والدين ص310.

(2) أدب الدنيا والدين ص310.

(3) بهجة المجالس 569/2.

(4) الآداب الشرعية لابن مفلح 223/2.

(5) بهجة المجالس 570/2.

(6) بهجة المجالس 270/2.

وقال مسعر بن كدام الهلالي يوصي ابنه كداماً:
 إني مَنَحْتُكَ يا كدامُ نصيحتي فاسمع لقول أبي عليك شفيق
 أما المزاحة والمرأء فدَعُهُما حُفَّانٍ لا أرضاهما لصديق
 إني بلوثُهُما فلم أَحْمَدُهُما لمجاورٍ جارٍ ولا لصديق
 والجهل يزري بالفتى في قومه وعروقه في الناس أي
 وقال محمد الخضر حسين: = والمروء تنادي صاحبها أن يسود
 مجلسه الجد والحكمة، وأن لا يلزم بالمزاح إلا إماماً مؤنساً في أحوال
 نادرة.

ووجه ذلك أن الذي يسرف في المزاح يكثر منه الوقوع في لغو
 الحديث، ولا يخلو أن تصدر منه كلمات تؤذي بعض جلسائه.
 وكمال الإنسانية لا يلتقي بلغو الحديث، أو إيذاء بعض الإخوان في
 مجلس. (3)

والمقصود أن المزاح لا ينبغي الإكثار منه، ولا الإسفاف فيه.
 أما ما عدا ذلك فيحسن؛ لما فيه من إيناس الجليس، وإزالة الوحشة،
 ونفي السامة.
 وإنما المزاح في الكلام كالملح في الطعام إن عُدِمَ أو زاد على الحد
 فهو مذموم.

أَفِذْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بالجد راحةً يَجِمُّ وَعَلَّه بشيء من المرح
 ولكن إذا أعطيتَه المرحَ فليكن بمقدار ماتعطي الطعام من
 (4) ١ ١١

40_ كثرة الحلف:

- (1) بهجة المجالس 270/2_271.
- (2) بهجة المجالس 430/2_431.
- (3) رسائل الإصلاح 212/1.
- (4) أدب الدنيا والدين ص 311.

فمن الناس من يجري الحلف على لسانه كثيراً بمناسبة وبدون مناسبة.

فإذا تحدث إلى أحد بحديث أكثر من الحلف، ولو لم يطلب منه ذلك. وإنما يحلف لجريان ذلك على لسانه، أو لأنه يريد تأكيد كلامه؛ ليجد قبولاً في قلوب السامعين.

وربما كانت تلك الحلفة حلفة فاجر لا يبر فيها ولا يصدق. فينبغي للمسلم أن يتجنب كثرة الحلف ولو كان صادقاً؛ ذلك أن كثرة الحلف تدل على قلة وقار الله في قلب العبد.

قال تعالى: **[واحفظوا أيمانكم]** (المائدة: 89).
فحفظ اليمين، وقلة الحلف دليل على تعظيم الله عز وجل.
بل إن ذلك من مقومات المروءة، ومما يتمدح به عند أهل الجاهلية.

قال أحد الشعراء يمدح رجلاً:
قليل الأايا حافظٌ ليمينه وإن بدرت من الأليّة برّت

والأايا جمع أليّة، والأليّة بالتشديد هي اليمين.
= وقال بكار السيريني: صحبت ابن عون دهرأ فما سمعته حالفاً
على يمين برّة ولا فاجرة+. (1)

أما إذا احتاج المسلم إلى اليمين أو طلبت منه فلا بأس في ذلك.

41_ تتبع عثرات الجليس:

فهناك من إذا جلس إليه أحد من الناس، ثم شرع في حديث ما بدأ بتتبع عثراته، وتصيد زلاته؛ فما أن ينبس المتحدث بكلمة عوراء أو نحوها إلا ويحفظها، ويتروّاها، ويُذكّره بها بين الفينة والأخرى. ومن هنا تجد أن الناس ينفرون من ذلك الشخص، ويتحفظون من الكلام معه في أي أمر.

(1) سير أعلام النبلاء 6/366.

وليس ذلك الفعل من المروءة في شيء، بل المروءة تقتضي أن يتعامى المرء عن عيوب جليسه، وأن يتغاضى عما يصدر منه من خلل أو زلل؛ ليحفظ على جليسه كرامته وعزته. ثم إن رأى منه أمراً يستوجب التنبيه نبهه بلطف وأدب دون أن يخذل كرامته.

قال بعضهم يمدح قوماً:

وأحلامٌ عادٍ لا يخاف جليسهم إذا نطق العوراء غربُ لسان

إذا حُدِّثوا لم يخش سوءٌ وإن حَدَّثوا أدَّوا بحسن بيان(1)

وقال آخر:

جليسٌ لي أخا ثقةٍ كأن حديثه خبره

يسُرُّكَ حسنٌ ظاهره وتحمد منه مختصره

ويستر عيبَ صاحبه ويستر أنه ستره(2)

42_ إظهار الملاحة من الجليس:

فهناك من الناس من هو ضيقُ الطعن، كثير الملامة، فإذا ما جلس إليه أحد أظهر الانقباض، وأبدى الضجر، ولم يتحدث إلى جليسه إلا على سبيل الاختصار.

وإذا أقبل إليه أحد، وتقصده ليجالسه لم يتطلق له، ولم يفرح بمقدمه، بل ربما قابله بالإشاحة والصدود، وبالأكفهار والعبوس.

وهذا الخلق مما يتنافى مع المروءة؛ إذ المروءة وكمال الأدب يقتضيان أن يتطلق المرء لجليسه، وأن يظهر له الفرح، وأن يلاطفه بحسن الحديث، ويشكره على تفضله ومجيئه؛ فلجليسك ومن يتقصدك حق ومكانة.

(1) المنتقى من مكارم الأخلاق ص148.

(2) بهجة المجالس 45/1.

وكرامُ الناس وساداتهم يقضون هذا الحق، ويكرمون جليسه ومن يقصدهم حق التكرمة، فيرفعون من قدره، ويعلون منزلته، ولا يرضون أن يهان أو ينال بمكروه مادام في حضرتهم.
=والعرب تجعل الحديث، والبسط، والتأنيس، والتلقي بالبشر من حقوق القرى، ومن تمام الإكرام.
وقالوا: من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤكلة+. (1)

قال حاتم الطائي:

سلي الجائع الغرثان يا أمَّ منذرٍ إذا ما أتاني بين ناري
هل أبسط وجهي إنه أوَّلُ وأبذل معروفٍ له دون

وقال مسكين الدارمي:

لحافي لحاف الضيف والبيتُ ولم يلهنِي عنه غزالٌ مُقنَّع (3)
أحدثه إن الحديث من القرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجع (4)

وقال الآخر:

وإن فنائي للقرى لرحيبٌ وإني لطلق الوجه للمبتغي
أضاحك ضيفي قبل إنزالٍ فيخصب عندي والمكان جديبٌ
وما أخصب للأضياف أن يكثر ولكنما وجهُ الكريم خصيبٌ (5)

(1) البيان والتبيين للجاحظ 10/1.

(2) ديوان حاتم الطائي، صنفه بن مدرك الطائي، رواية هشام بن محمد الكلبي، دراسة وتحقيق د. عادل سليمان جمال، ص 302. وانظر البيان والتبيين 10/1.

(3) غزال مقنن: يعني به الزوجة.

(4) البيان والتبيين 10/1 ويروى البيت: طعامي طعام الضيف والرحل رحله... قال ابن عبد البر: = قالوا وهو أحسن شيء في الضيافة+. انظر بهجة المجالس 296/1.

(5) روضة العقلاء ص 161_162.

وقيل للأوزاعي x: = ما إكرام الضيف؟
 قال: طلاقة الوجه، وطيب الكلام+. (1)
 وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
 =أعزُّ الناس عليّ جليسي، الذي يتخطى الناس إليّ، أما والله إن
 الذباب يقع عليه فيشق عليّ!+. (2)
 =وعن ابن عباس أنه سئل: من أكرم الناس عليك؟.
 قال: جليسي حتى يفارقني+. (3)
 =وقال معاوية لعرابة الأوسيّ: بم استحققت أن يقول فيك الشماخ:
 رأيت عُرَابَةَ الأوسيّ يسمو إلى الخيرات مُنْقَطِعَ القرين
 إذا ما راية رُفِعَتْ لمجدٍ تَلَقَّأها عُرَابَةُ باليمين
 فقال عرابة: هذا من غيري أولى بك يا أمير المؤمنين.
 فقال: عزمت عليك لتخبرني.
 فقال: بإكرامي جليسي، ومحاماتي على صديقي.
 فقال: إذا استحققت+. (4)
 وقال الأحنف: =لو جلست إلى مائة لأحبيت أن أتمس رضى كل
 واحدٍ منهم+. (5)
 =وكان القعقاع بن شور إذا جالسه رجل، فعرفه بالقصد إليه جعل
 له نصيباً من ماله، وأعانه على عدوه، وشفع له في حاجته، وغدا إليه
 بعد المجالسة شاكرًا+. (6)
 ولقد كان رسول الله "أكرم الناس لجلسائه، فقد كان يعطي كل واحد
 من جلسائه نصيبه، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه. (1)

(1) روضة العقلاء ص 161

(2) عيون الأخبار 307/1 وأدب المجالسة ص 33 وبهجة المجالس 45/1.

(3) بهجة المجالس 46/1 وأدب المجالسة ص 33.

(4) أدب المجالسة ص 34 وبهجة المجالس 46/1.

(5) بهجة المجالس 45/1.

(6) عيون الأخبار 306/1.

43_ تكليف الرَّجُلِ جُلَّاسَهُ بِخِدْمَتِهِ:

فبعض الناس إذا زاره أحد فجلس إليه أخذ يأمره، وينهاه، ويكلفه ببعض الأعمال.

وهذا الصنيع ليس من المروءة في شيء؛ إذ المروءة تقتضي القيام بخدمة الزائر، والمبالغة في إكرامه.

قال المقنع الكندي:

وإني لعبدُ الضيفِ ما دام نازلاً وما شيمة لي غيرها تشبه

وقال ابن حبان: =ومن إكرام الضيف طيب الكلام، وطلاقة الوجه، والخدمة بالنفس؛ فإنه لا يذل من خدم أضيافه، كما لا يعز من استخدمهم، أو طلب لقراه أجراً+. (3)

= ومن الاحتفاظ بالمروءة أن يتجنَّب الرجل تكليف زائريه ولو بعملٍ خفيف، كأن يكون بالقرب من الزائر كتاب فيطلب منه مناولته إياه، أو أن يكون بجانبه الزر الكهربائي فيشير إليه بالضغط عليه؛ لإنارة المنزل+. (4)

أو أن يأمره بإدارة أقداح الشاي على الضيوف، أو نحو ذلك.

=قال عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز: قال لي رجاء بن حيوة: ما رأيت رجلاً أكمل أدباً، ولا أجمل عشرةً من أبيك؛ وذلك أني سهرت معه ليلة، فبينما نحن نتحدث إذ غشي المصباح، وقد نام الغلام، فقلت له: يا أمير المؤمنين، قد غشي المصباح، أفنوقظ الغلام؛ ليصلح المصباح؟.

فقال: لاتفعل.

فقلت: أفتأذن لي أن أصلحه؟.

(1) انظر دلائل النبوة لأبي نعيم ص555.

(2) بهجة المجالس 785/2.

(3) روضة العقلاء ص261.

(4) رسائل الإصلاح 211/1.

فقال: لا، لأنه ليس من المروءة أن يستخدم الإنسان ضيفه، ثم قام هو بنفسه، وحط رداءه عن منكبيه، وأتى إلى المصباح فأصلحه، وجعل فيه الزيت، وأشخص الفتيل، ثم رجع وأخذ رداءه، وجلس، ثم قال: قمت وأنا عمر بن عبدالعزيز، وجلست وأنا عمر بن عبدالعزيز+. (1)

أما إذا قام الزائر وتكرم بخدمة مزوره فلا بأس في ذلك، خصوصاً إذا كان المزور له حق، أو كان من أهل الفضل والعلم والتقوى.

44_ تناجي الاثني دون الواحد:

فليس من الأدب إذا ضم مجلس ثلاثة أن يتهامس اثنان دون الثالث؛ لأن ذلك يحزنه، ويوحشه، ويجرح شعوره، ويصيبه بالضيق من جرّاء جلوسه ساكناً وحده.

وقد تخالجه الرّيب، وتساوره الظنون، فيظن أنهما ينهشان في عرضه، أو يحطان من قدره، أو يكيدان له مكيدة، فيقوم من المجلس مؤغراً الصدر، محزون القلب.

فلإبقاء على المودة، والمحافظة على الألفة مُنعت مناجاة الاثني دون الثالث إلا أن يستأذناه فيأذن، فلا حرج إذا؛ لأن المنع حقه، فيستباح بإذنه.

وكذلك الحكم لو تناجى ثلاثة دون رابع، أو أربعة من دون خامس، أو خمسة من دون سادس أو أكثر من ذلك؛ لتحقق علة النهي في ذلك كله.

بل العلة هنا أشد تحقّقاً؛ فإن انفراد جَمع بالمناجاة من دون واحد أشدُّ إيغاراً لصدره؛ فببدل أن يكون النفور من شخصين يكون من أكثر؛ فالأمر إذاً أعظم، فكان بالمنع أجدر.

ويقاس على ذلك ما إذا كان الحديث بين اثنين دون الثالث بلُغَةً لا يفهمها الثالث. (2)

(1) عين الأدب والسياسة ص124.

(2) انظر الأدب النبوي لمحمد الخولي ص176_177، وأدب المسلم لمحمد مبيض ص54.

خصوصاً إذا كان الاثنان يستطيعان الكلام بلغة يفهما الثالث.
 عن ابن مسعود قال: قال رسول الله: "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى
 رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس؛ أجل إن ذلك يحزنه". (1)
 قال ابن حجر x: = قال الخطابي: وإنما قال: يحزنه؛ لأنه قد يتوهم
 أن نجواهما إنما هي لسوء رأيهما فيه، أو لدسياسة غائلة له. (2)
 وقال ابن حجر: = وقد نقل ابن بطلال عن أشهب عن مالك قال: لا
 يتناجى ثلاثة دون واحد، ولا عشرة؛ لأنه قد نُهي أن يترك واحداً.
 قال ابن بطلال: وهذا مستنبط من حديث الباب؛ لأن المعنى في ترك
 الجماعة للواحد كترك الاثنين للواحد.
 قال: وهذا من حسن الأدب لئلا يتقاطعوا. (3)
 قال ابن حجر: = قال المازري ومن تبعه: لا فرق في المعنى بين
 الاثنين والجماعة؛ لوجود المعنى في حق الواحد.
 زاد القرطبي: بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأشد؛ فليكن المنع
 أولى.

وإنما خص الثلاثة بالذكر؛ لأنه أول عدد يتصور فيه ذلك المعنى،
 فمهما وجد المعنى فيه ألحق به في الحكم. (4)

45_ القيام بما ينافي الذوق في المجالس:

فالمجالس لها احترامها وحقها، فلا يحسن بالمرء أن يصدر منه ما
 ينافي الذوق فيها، وما يبعث على الكراهة و الاشمئزاز.
 وذلك أن يَتَجَشَّأَ في المجلس، أو أن يتشاءب، أو يَتَمَخَّطَ، أو يبصق
 في حضرة غيره.

ومن هذا القبيل تخليل الأسنان، وإدخال الأصبع في الأنف، وكثرة
 التنحنح، والقهقهة، والتمطي، والعبث بالشارب واللحية، ونحو ذلك. (5)

(1) رواه البخاري 142/7.

(2) فتح الباري 86/11.

(3) فتح الباري 86/11.

(4) فتح الباري 86/11.

(5) انظر تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لمسويه ص72، وجوامع الأداب ص11.

فالذي يليق بالمرء إذا جلس في المجلس أن يكون ذا هيبة وأدب ووقار؛ فذلك أكمل لأدبه، وأدعى لاحترامه وتبجيله. ولئن كان هذا الأدب حسناً مطلوباً في كل مجلسٍ فلَهُو في مجالس العلماء والأكابر أولى وأحرى. (1)

46_مزاولة المنكرات في المجالس:

فكما أنه لا يحسن القيام بما ينافي الذوق في المجالس فكذلك لا يجوز مزاولة المنكرات فيها، كشرب الدخان، وسماع الأغاني، ومشاهدة المحرمات من أفلام خليعة ونحوها. وكالغيبة والنميمة، والاستهزاء بالدين، وعباد الله الصالحين ونحو ذلك.

فهذه المجالس مجالس زور وخنا لا يجوز شهودها، ولا السكوت عما يدور فيها لمن حضرها.

47_حضور مجالس اللغو ومداهنة أهلها:

فهناك من الناس من يحضر مجالس اللغو والزور، وفيه بقية من خير؛ فلا يشارك أهل المجلس في منكرهم ولغوهم، ولكنه لا ينكر عليهم ما هم فيه، ويظن أنه في منجى من الإثم، لأنه لم يشاركهم في زعمه!.

وهذا خطأ شنيع؛ إذ لا يجوز للمرء أن يشهد مجالس اللغو والخنا والزور كما مر إلا إذا كان سينكر عليهم، أما إذا سكت عنهم فقد وقع في المداهنة المحرمة.

بل إن حضوره وسكوته عن المنكر خطر على من يزاولونه؛ فقد يظنون أن سكوته إنما هو إقرار لهم، ورضاً عما يصدر منهم. فهذه هي المداهنة المذمومة، والتي أصلها من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستتر باطنه. وحقيقتها إظهار الرضا بما يصدر من الظالم أو الفاسق من قول باطل، أو عمل مكروه.

(1) انظر تذكرة السامع والمتكلم ص148_150.

فهي بلاذة في النفس، واستكانة للهوى، وقبول لما لا يرضى به ذو دين أو عقل أو مروءة.

هذه هي المداهنة، فلا تلبس بالمداراة؛ إذ المداراة محمودة مرغوب فيها؛ فهي من أخلاق المؤمنين.

وحقيقتها أنها ترجع إلى حسن اللقاء، وطيب الكلام، والتودد للناس، وتجنب ما يشعر بغضب أو سخط أو ملالة، كل ذلك من غير ما تلم للدين في جهة من الجهات.(1)

قال ابن بطلان: =المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، وترك الإغلاظ في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة+. (2)

فمن المداراة المحمودة أن تغشى تلك المجالس بنية الإصلاح، وتغيير المنكر، أو تخفيف الشر، فتأخذ بسنة المداراة، فتتلف مع أهل المجلس، وتتكلم عليهم برفق، وتأخذ بأيديهم إلى ما فيه نجاتهم وسلامتهم، مراعيًا بذلك الحكمة، متجنبًا ما يشعر بغضبهم أو ملالتهم. فهذا العمل محمود مبرور، وأنت فيه مأجور غير مأزور.

فإذا ما رأيت منهم إعراضاً عن الحق، وتمادياً في الضلالة والغواية، أو لمست منهم عناداً وجماحاً وتعنتاً، أو خشيت على نفسك من سلوك سبيلهم، وانحدر في حضيضهم_فالسلامة السلامة، والنجاء النجاء.

48_ الجلوس على هيئة تشعر بقلّة الأدب:

فليس من الأدب أن يجلس المرء جلسة استهتار بالآخرين، كأن يضطجع وهم جلوس إلا لعذر، أو أن يضع رجله في مواجهتهم أو نحو ذلك.(3)

(1) انظر روضة العقلاء ص70_71 وفتح الباري10/544_545 ورسائل الإصلاح1/31_138، وسوء الخلق مظاهره_أسبابه_علاجه ص119_128.

(2) فتح الباري 10/545.

(3) انظر أدب المسلم ص53.

وتتأكد مراعاة هذا الأدب حال الجلوس إلى العلماء؛ فيحسن بالمرء أن يجلس إليهم بتواضع، وسكون، وتعقل، ورزانة.⁽¹⁾

49_ الجلوس وسط الحلقة:

وهذا مما ينافي الأدب في الجالس.

قال الترمذي: =حدثنا سويد أخبرنا عبدالله، أخبرنا شعبة عن قتادة عن أبي مجلز أن رجلاً قعد وسط الحلقة، فقال حذيفة: ملعون على لسان محمد، أو لعن الله على لسان محمد" من قعد وسط الحلقة+. (2)

50_ التفريق بين اثنين متجالسين دون إذهما:

هذا العمل مما يشعر بقلّة الأدب، وقلّة المراعاة لمشاعر الآخرين، فقد يقطع حديثاً كان متصلاً بين اثنين، وقد يحرم صاحباً من محادثة صاحبه، وقد يتقل على المتجالسين بجلوسه بينهما ونحو ذلك... فهذا كله مما يولد الكراهية والمعاداة، ولأجل ذلك نُهي عن هذا العمل؛ حفاظاً على استبقاء روح المودة بين المسلمين.

أما إذا أذن الجالس أن يجلس بينهما فلا بأس بذلك.

قعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله"قال: =لا يحل للرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما+. (3)

51_ إقامة الرجل من مجلسه والجلوس مكانه:

فلا يليق بالرجل أن يقيم أحداً من مجلسه ثم يجلس فيه؛ لما في ذلك من الكبر والتعالي، والإضرار بالآخرين.

ولهذا مُنع الرجل أن يقيم أخاه من مجلسه؛ ليجلس فيه؛ حرصاً على علاقة المسلمين ببعض أن تشوبها شائبة.

(1) انظر تذكرة السامع والمتكلم ص147_148.

(2) أخرجه أحمد5/384_398، وأبو داود (4826)، والترمذي (2753)، والحاكم4/281 كلهم عن حذيفة، وقال الترمذي = حسن صحيح+ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (4697).

(3) أخرجه أحمد2/213، وأبو داود (4845)، والترمذي (2752) عن عبد الله ابن عمر وقال الترمذي = حسن صحيح+ وصححه أحمد شاكر في شرحه للمسند (6999)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (7532).

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي "قال: = لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه+. (1)

قال ابن حجر x في شرح هذا الحديث: = قال يعني ابن أبي جمرة x: والحكمة من هذا النهي منع استنقاص حق المسلم المقتضي للضعائن، والحث على التواضع المقتضي للموادة، وأيضاً فالناس في المباح كلهم سواء، فمن سبق إلى شيء استحقه، ومن استحق شيئاً فأخذ منه بغير حق فهو غصب، والغصب حرام، فعلى هذا يكون بعض ذلك على سبيل الكراهة، وبعضه على سبيل التحريم+. (2)

52_ الجلوس في مكان الرجل إذا قام لحاجة:

قال عليه الصلاة والسلام: = إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به+. (3)

قال النووي x: = قال أصحابنا: هذا الحديث فيمن جلس في موضع من المسجد أو غيره لصلاة مثلاً، ثم فارقه؛ ليعود، بأن فارقه ليتوضأ، أو يقضي شغلاً يسيراً ثم يعود لم يبطل اختصاصه، بل إذا رجع فهو أحق به في تلك الصلاة، فإن كان قد قعد فيه غيره فله أن يقيمه، وعلى القاعد أن يفارقه لهذا الحديث.

هذا هو الصحيح عند أصحابنا، وأنه يجب على من قعد فيه مفارقتة إذا رجع الأول.

وقال بعض العلماء: هذا مستحب، ولا يجب، وهو مذهب مالك، والصواب الأول.

قال أصحابنا: ولا فرق بين أن يقوم منه، ويترك سجادة و نحوها أم لا، فهذا أحق به في الحالين.

قال أصحابنا: وإنما يكون أحق به في تلك الصلاة وحدها دون غيرها والله أعلم+. (4)

(1) أخرجه البخاري 138/7، ومسلم (2177) عن ابن عمر.

(2) فتح الباري 65/11.

(3) رواه مسلم (2179).

(4) شرح النووي لصحيح مسلم 334/14.

قال ابن حجر: =وقال عياض: اختلف العلماء فيمن اعتاد بموضع من المسجد للتدريس والفتوى، فحكى عن مالك أنه أحق به إذا عُرف به.

قال: والذي عليه الجمهور أن هذا استحسان وليس بحق واجب، ولعله مراد مالك.

وكذا قالوا في مقاعد الباعة من الألفية والطرق التي هي غير مملوكة، قالوا: من اعتاد بالجلوس في شيء منها فهو أحق به حتى يتم غرضه. (1)

وقال النووي: =إلا أن أصحابنا استثنوا منه ما إذا أُلِفَ من المسجد موضعاً يفتي فيه، أو يُقَرَأ قرآناً أو غيره من الأمور الشرعية فهو أحق به، وإذا حضر لم يكن لغيره أن يقعد فيه. وفي معناه من سبق إلى موضع من الشوارع ومقاعد الأسواق لمعاملة. (2)

53_التقدم بحضرة الأكابر:

وذلك بأن يتقدمهم المرء بالحديث، فيتصدر المجلس بوجودهم، بل ربما تصدر الفتوى مع وجود من يكبره في العلم بمراحل. ومن التقدم أيضاً أن يتقدمهم بالمجلس، فيجلس في مكان أُعِدَّ للأكابر، مما يعرضه للتنقص والازدراء، بل ربما أقيم من مكانه إذا حضر من أُعِدَّ له المكان.

=تباعد كعب الأخبار يوماً في مجلس عمر بن الخطاب، فأنكر ذلك عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن في حكمة لقمان، ووصيته لابنه: إذا جلست إلى ذي سلطان فليكن بينك وبينه مقعدُ رجل؛ فلعله يأتيه من هو أثرُ عنده منك، فَيُنَحِّيك، فيكون ذلك نقصاً عليك. (3)

(1) فتح الباري 66/11.

(2) شرح النووي لصحيح مسلم 334/14.

(3) بهجة المجالس 48/1.

وقال الأحنف: =لأنْ أَدْعَى من بعد أحبُّ إليَّ من أنْ أُفْصَى عن قرب+. (1)

وعن الأحنف أيضاً أنه قال: =ما جلست مجلساً قط أخاف من أن أقام منه لغيري+. (2)

فجدير بالمرء أن يجلس حيث ينتهي به المجلس؛ فذلك أَدْعَى للتواضع، وأكمل في المروءة، وأبعد عن التنقص.
قال ابن خالويه:

إذا لم يكن صدرُ المجالس سيِّداً فلا خير فيمن صدرته

قال ابن المقفع: =إن استطعت أنْ تَضَع نفسك دون غايتك في كل مجلس، ومقام، ومقال، ورأي، وفعلٍ فافعل؛ فإنَّ رَفَعَ الناس إياك فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك، وتقريبهم إياك إلى المجلس الذي تباعدت منه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تُعْظِم، وتزيبهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تُزَيِّنْ هو الجمال+. (4)

54_ قلة التفسح في المجالس:

فهناك من إذا جلس مجلساً أخذ فيه مكاناً واسعاً؛ لأجل أن ينعم بالراحة، فيسلم من المضايقة.

فقلة التفسح في المجالس خلق ذميم، ومسلك شائن، فهو ناتج عن ضيق النفس، وحبُّ في الاستئثار، وقلة مبالاة في الآخرين.

بل إن بعضهم قد يُوسِّع له في المجلس، فيأتي ويتربع، فيأخذ مساحة واسعة في المجلس، بل ربما لا يرضى أن يأتي أحد بعد ذلك بجانبه.

قال بعض الحكماء: =رجلان ظالمان يأخذان غير حقهما: رجل وُسِّعَ له في مجلس ضيقٍ فترَبَّعَ وتفتَّحَ، ورجل أهديت له نصيحة فجعلها دُنْباً+. (5)

(1) بهجة المجالس 47/1.

(2) بهجة المجالس 47/1.

(3) أقوال ماثورة ص 153 عن طرائف الحكمة 74/2.

(4) الأدب الصغير والأدب الكبير ص 151.

(5) بهجة المجالس 47/1.

ولهذا أدبنا الله عز وجل بأن نتفصح في المجالس؛ لما في ذلك من زرع للممودة، وتوثيق لعرى الأخوة، وتخلص من الأخلاق الذميمة.
قال تعالى: [يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم] (المجادلة: 11)

قال الشيخ ابن سعدي x في هذه الآية: = هذا أدب من الله لعباده إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم، أو بعض القادمين للتفصح له في المجلس فإن من الأدب أن يفسحوا له؛ تحصيلاً لهذا المقصود.

وليس ذلك بضار للفاسح شيئاً، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه.

والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح لأخيه فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه. (1)

قال عمر بن الخطاب: = مما يُصَفِّي لك ودَّ أخيك أن تبدأه بالسلام إذا لقيته، وأن تدعوه بأحب الأسماء إليه، وأن توسع له في المجلس. (2)

وقال الأصمعي: = كان الأحنف إذا أتاه إنسان وسَّع له، فإن لم يجد موضعاً تحرك؛ ليريه أن يوسع له. (3)

55_ ترك الاستئذان حال دخول البيوت:

فدخول البيوت دون استئذان من أهلها مما ينافي الأدب ومكارم الأخلاق، ومما يوجب الريبة من الداخل، ويدعو لإساءة الظن به، واتهامه باستراق الحديث وتتبع العورات.

ولذلك أدبنا الله تبارك وتعالى بأن نستأذن إذا أردنا دخول بيوت غير بيوتنا.

(1) تيسير القرآن الرحمن 316/7.

(2) أدب المجالسة ص 31.

(3) عيون الأخبار 306/1 وبهجة المجالس 48/1.

قال عز وجل: [يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون] (النور: 27).

قال ابن كثير x في تفسير هذه الآية: = هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان أمرهم ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا، قبل الدخول، ويسلموا بعده. (1)
قال x: = وقال قتادة في قوله (حتى تستأنسوا) هو الاستئذان ثلاثاً، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع، أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا رثو. (2)
قال ابن سعدي x في تفسير الآية السابقة: = يرشد الباري عباده المؤمنين ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان؛ فإن في ذلك عدة مفسدة، منها ما ذكره الرسول " حيث قال: =إنما جعل الاستئذان من أجل البصر. (3)

فبسبب الإخلال به يقع البصر على العورات التي داخل البيوت؛ فإن البيت للإنسان في ستره عورة ما وراءه بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية يدل على الشر.
ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم، (حتى تستأنسوا) أي تستأذنوا.

سمي الاستئذان استأناساً؛ لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة. (4)

(1) تفسير القرآن العظيم 3/269_270.

(2) تفسير القرآن العظيم 3/272.

(3) رواه البخاري 7/130 عن سهل بن سعد.

(4) تيسير الكريم الرحمن 3/393.

ثم قال x: = **ذلكم** + أي الاستئذان المذكور = **خير لك لعلكم تذكرون** + لاشتماله على عدة مصالحي، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن دخل المستأذن.

[فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا] أي فلا تمتنعوا من الرجوع ولا تغضبوا منه فإن صاحب المنزل لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع فإن شاء أذن أو منع؛ فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز من هذا الحال. (1) ولهذا ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله " قال: = إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع. (2)

والاستئذان يكون بالنداء، والسلام، وقرع الباب، ونحو ذلك. (3)

56_ ترك السلام حال دخول المجلس وحال الخروج منه:

فالسالم الأول إيذان بالدخول، والسلام الآخر إيذان بالانصراف. وهذا من الأدب الجميل الذي يورث المحبة بين المؤمنين. وتركه دليل على الجفاء والغلظة، وذلك مما يورث البغضاء والنفرة. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: = إذا انتهى أحدكم من المجلس فليسلم، فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم؛ فليست الأولى بأحق من الآخرة. (4)

57_ الإخلال بأمانة المجالس:

فمن الناس من يحضر المجالس فلا يراعي حرمتها، ولا يحفظ حقوقها، بل تراه يسرد أخبارها، ويفشي أسرارها.

(1) تيسير الكريم الرحمن 3/394.

(2) البخاري 7/130 عن أبي موسى الأشعري.

(3) انظر إصلاح المجتمع ص 168.

(4) أخرجه أحمد 2/287، والترمذي (2706) والبخاري في الأدب المفرد (1007)

وابن حبان (494_495_496) والبغوي في شرح السنة (3328) كلهم عن أبي

هريرة وقال الترمذي: = حديث حسن + وصححه أحمد شاكر في شرحه

للمسند (7839) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (757).

وهذا ضرب من ضروب الخيانة، ومظهر من مظاهر الإخلال بالأمانة؛ فكم من حبال تقطعت، وكم من مصالح تعطلت؛ لإستهانة بعض الناس بأمانة المجالس، وذكّرهم ما يدور فيها.

فالمجالس لها حرّامات يجب أن تصان، مادام الذي يجري فيها مقيداً ومربوطاً بقوانين الأدب وشرائع الدين.

أما إذا كانت المجالس خناً وزوراً، تزاول فيها المنكرات وتتشرب فيها الخمر، وتسفك فيها الدماء المحرّمة، ويمكر فيها بالأبرياء، ويخطط فيها للفساد فلا حرّمة لها؛ وعلى كل مسلم شاهدها أن يسارع للحيلولة دون الفساد جهد طاقته.

قال رسول الله: "المجالس بالأمانة إلا مجلس سفك فيه دم حرام أو فرج حرام، أو اقتطاع مال حرام". (1)

ومن الإخلال بأمانة المجلس أن يفشي المرء سر صاحبه إذا جلس إليه، وأفضى إليه بمكنونه، وأشعره بأنه لا يجب اطلاع أحد عليه. فإفشاء السر من الأخلاق المرذولة، وهو مركب من الخرق والخيانة؛ فليس بوقور من لم يضبط لسانه، ولم يتسع صدره لحفظ ما يُسْتَسَرُّ به. (2)

قال عليه الصلاة والسلام: "إذا حدّث الرجل ثم التفت فهي أمانة". (3)

قال عمر بن عبدالعزيز لمحمد بن كعب القرظي: أي خصال الرجال أوضع؟

قال: كثرة كلامه، وإفشاءه سره، والثقة بكل أحد. (4)

(1) أخرجه أبو داود (4868) وأحمد (342/3_343)، عن جابر وضعفه الألباني في السلسلة (1909).

(2) انظر تهذيب الأخلاق للجاحظ ص 31.

(3) أخرجه أحمد (324/3_379) وأبو داود (4868) والترمذي (1999) عن جابر وقال الترمذي: (حديث حسن) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (500).

(4) العزلة للخطابي ص 169.

قال الشيخ ابن سعدي* : =كن حافظاً للسر، معروفاً عند الناس بحفظه؛ فإنهم إذا عرفوا منك هذه الحال أفضوا إليك بأسرارهم، وعذروك إذا طويت سر غيرك الذي هم عليه مشفقون، وخصوصاً إذا كان لك اتصال بكل واحد من المتعادين؛ فإن الوسائل لاستخراج ما عندك تكثر وتتعدد من كل من الطرفين، فإياك إياك أن يظفر أحد منهم بشيء من ذلك تصريحاً أو تعريضاً.

واعلم أن للناس في استخراج ما عند الإنسان طرقاً دقيقة، ومسالك خفية؛ فاجعل كل احتمالٍ وإن بعدَ على بالك، ولا تؤت من جهة من جهاتك؛ فإن هذا من الحزم.

واجزم بأنك لا تندم على الكتمان، وإنما الضرر، والندم في العجلة، والتسرع، والثوق بالناس ثقةً تحملك على ما يضر+. (1)

58_التجسس والتحسس:

أصل التجسس تعرف الشيء عن طريق الجس أي الاختبار باليد. والتحسس هو تعرف الشيء عن طريق الحواس، ثم استعمل في البحث عن عيوب الناس.

وقيل: إن الأول البحث عن العورات، والثاني الاستماع لحديث القوم.

وقيل: إن الأول البحث عن بواطن الأمور، وأكثر ما يكون في الشر.

والثاني ما يدرك بحاسة العين والأذن.

وقيل: التجسس: تتبع العورات لأجل غيره، والتحسس تتبعها لنفسه. (2)

والحاصل أن التجسس والتحسس خلقان مذمومان.

فالواجب على المسلم أن يكتفي من إخوانه بالظاهر، وأن يكَلِّ الباطن على العليم الخبير.

(1) الرياض الناضرة ص210.

(2) انظر الأدب النبوي ص173 وسوء الخلق للكاتب.

ومن صور التجسس و التحسس ماتجده عند بعض الناس، حيث يجلس في مكانٍ ما، لا يراه أحد من الجالسين فيه فيستمع ما يدور بينهم، إما للإيقاع بهم، وإما لإشباع فضوله وتطفله.
ومن ذلك أيضاً أن يرخي الإنسان أذنه؛ لسماع حديثٍ بين اثنين يتناجيان في مجلسٍ ما.
ومن ذلك أن يقف المرء وراء من يكتب شيئاً أو يقرؤه؛ ليطلع عليه.

فيجب على المسلم أن يحذر التجسس والتحسس، وأن ينأى بنفسه عن هذه الأخلاق المرذولة، والتي حرمها الله على عباده المؤمنين، ونهاهم عن فعلها والاتصاف بها.
قال عز وجل: [ولا تجسسوا] (الحجرات: 12).
وقال: " =ولا تحسسوا ولا تجسسوا+ (1).

أما إذا كان التجسس والتحسس طريقاً لدرء مفسدة عظيمة، أو جلب مصلحة كبيرة فلا بأس في ذلك، كما لو علمنا بأن أناساً عزموا على ارتكاب جريمة قتل أو سرقة أو نحو ذلك، فتجسسنا عليهم لنحول بينهم وبين ما يشتهون فلا حرج في ذلك، بل قد يجب على من يعنيه الأمر.
59_ الجلوس في الطرقات دون إعطائها حقها:

فهناك من يجلس في الطرقات العامة، التي يسلكها الرجال والنساء، ويمر بها الأشراف والسفهاء، ويختلط فيها الحابل بالنابل، فيعرض هذا الجالس نفسه للفتن، وللتقصير في أداء حق الطريق. (2)
ولهذا نهينا عن الجلوس في الطرقات.

فعن أبي سعيد الخدري: أن النبي " قال: =إياكم والجلوس في الطرقات.

**فقالوا: يارسول الله، مالنا من جلوسنا بدُّ، نتحدث فيها.
فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطو الطريق حقَّه.**

(1) رواه البخاري (88/7) ومسلم (2563).

(2) انظر فتح الباري 13/11_14 وإصلاح المجتمع ص 141_149.

قالوا: وما حق الطريق يارسول الله؟
قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر+. (1)

قال الإمام النووي× في شرح هذا الحديث: = هذا الحديث كثير الفوائد، وهو من الأحاديث الجامعة، وأحكامه ظاهرة، وينبغي أن يتجنب الجلوس في الطرقات لهذا الحديث. ويدخل في كف الأذى اجتناب الغيبة، وظن السوء، وإحغار المارين، وتضييق الطريق.

وكذا إذا كان القاعدون ممن يهابهم المارون أو يخافون منهم، ويمتنعون من المرور في أشغالهم بسبب ذلك؛ لكونهم لا يجدون طريقاً إلا ذلك الموضع+. (2)

هذا وللطرقات آداب أخرى غير ما ذكر في الحديث السابق، فقد ورد ذكرها في أحاديث أخرى، وقد بلغ مجموع تلك الآداب أربعة عشر أدباً كما قال ابن حجر في الفتح، وقد نظمها× في الأبيات التالية، حيث يقول:

جَمَعْتَ آدَابَ مَنْ رَامَ الْجُلُوسَ	الطريق من قول خير الخلق
أَفْشِ السَّلَامَ وَأَحْسِنِ فِي الْكَلَامِ	وَسَمِّتْ عَاطِئاً وَسَلَاماً رُدَّ
فِي الْحَمْلِ عَاوِنٌ وَمَظْلُوماً أَعِنِ	لَهْفَانٌ أَهْدِ سَبِيلاً وَاهِدِ حَيْرَانَا
بِالْعَرَفِ مُزْ وَائِهَ عَنِ نُكْرٍ	وَعُضِّ طَرْفَاً وَأَكْثِرْ ذِكْرَ

60_ فُقدَانُ المودَةِ والصَّفَاءِ، وَشِيعُ الكِرَاهِيَةِ والبِغْضَاءِ:

فالمجالس التي تجمع الناس، ويكثر أهلها من ارتيادها والاختلاف إليها يُفْتَرَضُ فيها أن تكون مجالس خير وبركة، وأنس ومودة، تسودها الألفة والإخاء، ويرفرف في أفياءها الصفاء والنقاء، ويجد

(1) أخرجه البخاري_ الفتح_ 126/7 ومسلم (2121) عن أبي سعيد.

(2) صحيح مسلم بشرح النووي14/284_285.

(3) فتح الباري13/11.

فيها المرء فيها فرحه وسروره، وي طرح في ساحتها همومه وأنكاده وغمومه.

إلا أن المتأمل لكثير من المجالس لا يجد إلا عكس ما مضى؛ فيكثر فيه الخلاف، ويغلب على مرتاديه سوء الظن، وتشيع فيما بينهم العداوة والبغضاء، ويكثر فيهم الحسد والبغي والاستطالة. فإذا رأيت أصحابها ظننتهم إخوة متآلفين من كثرة ما يلقي بعضهم بعضاً.

وإذا كشفت عن سالفتهم، وتبينت حقيقة أمرهم وجدت قلوباً متنافرة، وضلوعاً على الضغينة مَحْنِيَّة؛ فالواحد منهم يحذر جلسائه، ويتحفظ منهم أشد التحفظ، فإذا قال كلمة خشي من تكذيبهم له، أو سخريتهم به، وإذا همَّ بالقيام من المجلس خاف من لمزهم وغيبتهم له بعد فراقه المجلس.

قال الخطابي x: = قال بعض الناس: إني لا أُشَبِّه أهل هذا الزمان إذا رأيتهم قد تلاقوا في المحافل، وتدانوا في المجالس، وتحالَّت (1) بهم الرُّكْبُ إلا يقوم تصافوا مستعدين لمحاربة أعدائهم، وتضافروا مُتَأَهِّبِينَ لمناصبه أقرانهم، فشهدوا مركز اللقاء بسيوف مشهورة، وأسنَّة مطرورة (2)، وقسيِّ مُوتَّرَة (3)، وسهام مُفَوِّقَة (4)؛ فتطاعنوا ضرباً بسيوفهم، ودعساً (5)، برماحهم، وتراشقوا خَصْلًا (6) سهامهم، حتى انْفَلَّت سيوفهم، وكَلَّت أيديهم، ومنتلت كنانتهم (7) عن آخر أهزَع (8)؛

(1) تحالَّت: نزلت.

(2) مطرورة: ذات طرة وهيئة حسنة.

(3) موترة: مشدودة، وتر القوس أي شد وترها.

(4) مفوقة: أي وضعت في الوتر؛ ليرمى بها.

(5) دعساً: طعنًا.

(6) خصلًا: خصل السهم: أي وقع بلزق الهدف.

(7) كنانتهم: جمع كنانة وهي جعبة السهام.

(8) أهزَع: الأهزَع السهم الذي يبقى في أسفل.

فأجّلت المعركة بينهم عن قتيل تشخب أوداجه، وجريح يفيح عانده(1)،
ومُرَّتْ(2) لانهوض به، ومُتَّحِنٍ ينوء على ضلعه.
فذلك الوجه والمثال فيما شبهته لك من صنيع أهل هذا الزمان إذا
ضمتهم المجالس، ولَفَّنَهُم المِلاقِي والمِجامِعُ؛ فتصور الآن قلوبهم،
وماتَّجَنَّهُ ضمائرهم من الغل والحسد، وماتحني عليه ضلوعهم من
الإحن والضغائن قِسيّاً موترة، وألسنتهم وما يَرْمُونَ به من القول
سهاماً مفوقة.

نصبوا أعراض الناس أغراضاً، وافترضوا بها افتراضاً؛ فهم إذا
تأملتهم وجدتهم على طبقاتٍ شتى، منهم ذو القحة(3) الذي يكشف
بالشتم الصريح مكاشفةً، ويجاهر باللفظ القبيح مجاهرة ومعالنة(4)،
ومنهم من يعرض بالأذى ويكفي ويُمَرِّض(5) القول به ويورّي، ومنهم
من يؤدي صاحبه بالمسارّة والنجوى والمباثة والشكوى، ومنهم من
يشجو أخاه بغمز العينين، ورَيِّ(6) الحاجبين، ورمز الشفتين(7)،
وكرف العرنين(8).

وأسلمهم جانباً من لا يعاجل بالسوء معاجلة، ولا يؤاخذ بالذنب بغتةً،
لكن يحصي الأنفاس، ويعد الحروف والألفاظ، ويحفظها ليوم حاجته،
وأوان فرصته، فَيُبَكِّتُ بها، ويُعَيِّرُ ويطنب فيها أو يُقَصِّرُ على شاكلة
قول الشاعر:

احذر مودةً ما ذق(9) شاب المرارة بالحلاوة

(1) يفيح عانده: يفيح أي ينتصب، والعاند الجرح الذي لا يسيل ولا يجف.

(2) المرّت: الصريع الذي يثخن في الحرب وبه رمق ثم يموت.

(3) ذو القحة: قليل الحياء.

(4) معالنة: المجاهرة.

(5) يمرض القول: يوهنه.

(6) زي الجبين: جمعه وقبضه.

(7) رمز الشفتين: الإشارة والإيماء بهما.

(8) كرف العرنين: شمه.

(9) الماذق: من المماذقة في الود وهي ضد المخالصة.

يحصي العيوب عليك أي يام الصداقة للعداوة(1)

61_ قلة ذكر الله في المجالس:

فكثير من المجالي_والله المستعان_تعمر بالقليل والقال، وباللغو واللغظ، ويقل فيه ذكر الله_تعالى_والصلاة على النبي". وهذا الأمر مدعاة لنزع البركو، وحلولِ النقمة والحسرة. عن أبي هريرة÷ قال: قال رسول الله": =مامن قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله_تعالى_فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان لهم حسرة+. (2)

وعنه÷ عن النبي"قال: =ماجلس قوم مجلساً لم يذكروا الله_تعالى_فيه ولم يصلوا على نبيهم فيه_إلا كان عليهم ترة؛ فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم+. (3).

62_ قلة المبالاة بقول كفارة المجلس:

فكثير من الناس يطلق العنان للسانه، فيكثر لغطه ولغوّه، ثم يقوم من المجلس دون أن يقول الدعاء الوارد في نهايته. وهناك من الناس من لا يحافظ على هذا الدعاء مع ما فيه من الفضل العظيم، بل يقوله أحياناً دون محافظة عليه. فاللائق بالمسلم أن يحافظ على هذا الدعاء؛ حتى يحصل على الأجر العظيم المترتب على قوله، وليسلم من تبعات ما صدر منه في ذلك المجلس.

عن أبي هريرة÷ قال: قال رسول الله": =من جلس في مجلس، فكثر فيه لُغْطُهُ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم

(1) العزلة للخطابي ص193_194.

(2) رواه أبو داود(4755) وأخرجه أحمد(2_389_515)، وأخرجه الحاكم(1/192)، وصححه الحاكم عن أبي هريرة، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(77).

(3) أخرجه أحمد(2_446_453)، والترمذي(3380) والحاكم(1/496)، والبيهقي(3/210)، كلهم عن أبي هريرة، وقال الترمذي= حديث حسن صحيح+ وصححه الحاكم، والألباني في صحيح الجامع(5483).

وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك_ إلا غفر له
ماكان في مجلسه ذلك+. (1)

وعن أبي برزة ÷ قال: كان رسول الله " يقول بأخرة (2) إذا أراد أن
يقوم من المجلس: =سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت،
أستغفرك وأتوب إليك+.

فقال رجل: يارسول الله، إنك لتقول قولاً ماكنت تقولهُ فيما مضى.
قال: =ذلك كفارة لما يكون في المجلس+. (3)

قال ابن عبد البر x: =وروي عن جماعة من أهل العلم بتأويل
القرآن في قول الله عز وجل_ [وسبح بحمد ربك حين تقوم] (الطور:
48)منهم مجاهد، وأبو الأحوص، وعطاء، ويحيى بن جعدة، قالوا:
حين تقوم من كل مجلس تقول فيه: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك
وأتوب إليك.

قالوا: ومن قالها غفر له ماكان في المجلس.
وقال عطاء: إن كنت أحسنت ازددت إحساناً، وإن كان غير ذلك
كان كفارة.

ومنهم من قال: تقول حين تقوم: سبحان الله وبحمده من كل مكان،
ومن كل مجلس+. (4)

(1) أخرجه أحمد 2/494، والترمذي (3433) والبغوي (1340) والحاكم 1/536، وابن
حبان (594) عن أبي هريرة وقال الترمذي = حديث حسن غريب صحيح+ وصححه
الحاكم ووافقه الذهبي وصححه الألباني في صحيح الجامع (6068).

(2) بأخرة: بفتح الهمزة والحاء: أي في آخر عمره.

(3) أخرج أبو داود (4859) والحاكم 1/537، والدرامي 2/736 (2559) عن أبي
برزة الأسلمي، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (4068): = حسن صحيح+.

(4) بهجة المجالس 1/53.

الخاتمة

هذا مايسّر الله جمعه، وأعان على إتمامه، من تبيان لبعض الأخطاء التي تقع في أحاديثنا ومجالسنا.

وفي نهاية المطاف أسأل الله سبحانه وأسأله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أن ينفع بهذه الصفحات، وأن يجعلها معينة على البر، دافعة إلى الخير.

كما أسأله تبارك وتعالى أن يستعملنا في طاعته، وأن يجعل أحاديثنا ومجالسنا عامرة بذكره، مقربة إلى رضوانه وجنته.

كما أمل من القارئ الكريم أن لا يحرم أخاه من ملاحظة يديها، أو دعوة صالحة يهديها.

وعسى أن لا أكون أثقلت على القراء، أو ضيقت عليهم، فما [أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب] (هود: 88).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

الفهرس

3	المقدمة
5	1_ الثرثرة
7	2_ الاستئثار بالحديث
8	3_ الحديث عن النفس على سبيل المفاخرة

- 10 4_ الغفلة عن مغبة الكلام
- 13 5_ قلة المراعاة لمشاعر الآخرين
- 15 6_ التعميم في الذم
- 16 7_ كثرة الأسئلة، وتعتمد الإحراج فيها
- 18 8_ سرعة الجواب
- 19 9_ الحرص على إبداء الرأي في كل صغيرة وكبيرة
- 21 10_ التعرض للسفلة والسفهاء
- 23 11_ الحديث بما لا يناسب المقام
- 28 12_ الحديث عند من لا يَرَعْبُ
- 30 13_ تكرار الحديث
- 31 14_ التعالى على السامعين
- 32 15_ ترك الإصغاء للمتحدث
- 34 16_ الاستخفاف بحديث المتحدث
- 35 17_ المبادرة إلى إكمال الحديث عن المتحدث
- 36 18_ القيام عن المتحدث قبل أن يكمل حديثه
- 37 19_ المبادرة إلى تكذيب المتحدث
- 38 20_ التقصير في محادثة الصغار
- 41 21_ الوقوعة في الناس
- 42 22_ التسرع في نشر الأخبار قبل التثبت منها ومن جدوى نشرها
- 43 23_ الكذب
- 44 24_ سماع كلام الناس بعضهم ببعض، وقبول ذلك دون تمحيص أو تثبُّت
- 45 25_ رفع الصوت
- 46 26_ الغلظة في الخطاب
- 51 27_ الشدة في العتاب
- 55 28_ التقصير في أدب الهاتف
- 55 أ_ قلة المبالاة بصحة الرقم المطلوب

- 56 ب_ شدة الغضب حال الاتصال الخطأ
- 56 ج_ قلة المراعاة لوقت الاتصال
- 57 د_ الإطالة بالمكالمة بلا داع
- 57 هـ_ قلة الاعتداد بالسلام من المتّصل بدايةً ونهايةً
- 57 و_ سكوت المتّصل إذا رُفعت السماعة
- 57 ز_ التعمية على المتّصل عليه
- 57 ح_ خضوع المرأة بالقول حال المهاتفة واسترسالها بالحديث مع الرجال
- 58 ط_ إزعاج الناس بالأخبار الكاذبة
- 58 ي_ تسجيل صوت المتكلم دون إذنه وعلمه
- 59 ك_ المعاكسات الهاتفية
- 59 29_ التقصير في أدب الحوار
- 61 أ_ قلة الإخلاص
- 61 ب_ الدخول في النيات
- 62 ج_ الغضب
- 62 د_ الهجر والصرم
- 63 هـ_ إغفال الجوانب العاطفية
- 64 و_ قلة الإنصاف
- 67 ز_ التهكم بالمحاور
- 68 ح_ التحدي والإفحام
- 69 ط_ تفخيم النفس
- 70 ي_ تجاهل اسم المحاور
- 71 ك_ التنازل عن المبدأ الثابت
- 72 ل_ الإصرار على الخطأ، والأنفة من الرجوع إلى الحق
- 74 م_ قلة العلم بمادة الحوار
- 76 ن_ إصدار الأحكام في مستهل الحوار
- 78 س_ قلة المراعاة لعامل الزمان والمكان
- 78 ع_ التشعب في الحوار، والخروج عن المضمون

78	ف_ محاوره ذي المهابة العظيمة
79	30_ الجدل والمراء والخصومة
83	31_ حب المعارضة والمخالفة
85	32_ بذاءة اللسان، والتفحش في القول
89	33_ النَّقْعُ في الكلام
92	34_ الخوض فيما لا طائل تحته
94	35_ كثرة التلاوم
95	36_ كثرة الشكوى إلى الناس
96	37_ كثرة الحديث عن النساء
97	38_ كثرة الهزل
97	39_ كثرة المزاح
100	40_ كثرة الحلف
100	41_ تتبع عثرات الجليس
101	42_ إظهار الملالة من الجليس
104	43_ تكليف الرجل جلاسه بخدمته
106	44_ تناجي الاثنين دون الواحد
107	45_ القيام بما ينافي الذوق في المجالس
108	46_ مزاولة المنكرات في المجالس
108	47_ حضور مجالس اللغو ومداهنة أهلها
110	48_ الجلوس على هيئة تشعر بقله الأدب
110	49_ الجلوس وسط الحلقة
111	50_ التفريق بين اثنين متجالسين دون إذنهما
111	51_ إقامة الرجل من مجلسه والجلوس مكانه
112	52_ الجلوس في مكان الرجل إذا أقام لحاجة
113	53_ التقدم بحضرة الأكابر
115	54_ قلة التفسح في المجالس
116	55_ ترك الاستئذان حال دخول البيوت
118	56_ ترك السلام حال دخول المجلس وحال الخروج منه

118	57_ الإخلال بأمانة المجالس
120	58_ التجسس والتحسس
121	59_ الجلوس في الطرقات
123	60_ فقدان المودة والصفاء، وشيوع الكراهية والبغضاء
126	61_ قلة ذكر الله في المجالس
126	62_ قلة المبالاة بقول كفارة المجلس
129	_ الخاتمة
130	_ المحتويات